

مجلة كلمة حق
السنة الأولى
العدد 09
أبريل 2018
كلمة حق
كنت معهم (١)
شاهد على اعتقالات الإسلاميين بالجزائر
الصغير منير
المقاومة العراقية .. فصول من قصة الظفر (٢)
عبدالغني مزوز
حصريا .. مذكرات الشيخ رفاعي طه (١)
محمد إلهامي
قطع رأس القيادة
م. أحمد مولانا
مذكرات درويش (٢)
يسرا جلال
وغيرها من المقالات ....

محتويات العدد


دوريـة ثـقـافـيـة مـعـرفـيـة
نخبة من الكـتـاب والمفكرين

العدد التاسع ، أبريل 2018


klmtuhaq

www.klmtuhaq.blog

المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
معتز زاهر

الافتتاحية...

ثغـور فارغة، وجيوش مـن العاطليـن

محمد إلهامي



ليس ثمة سؤال يواجهـه كاتب أو متحدث اليوم أكثر من سؤال: مـا العمـل؟!

سؤال ينسال في التعليقات على كل منشور، يقال بعد كل خطبة، يثار بعد كل محاضرة، يلقي في كل ندوة ومجلس.. جمهرة الناس في حال من التيه والفراغ والحيرة، والكل يسأل:

ما العمل؟!



لكن غياب القيادة العامة للأمة، وانهيار كثير من المشاريع والجماعات التي حاولت أن تكون طلائع بعث الأمة ليس هو نهاية المطاف، ولا هو داعية يأس مع قسوته ومرارته، بل نحن في وضع يجب علينا أن نكافح عن الإسلام في الخطوط الأخيرة، فالهجمة الآن هي على الثوابت الكبرى، من كان يصدق أن يتجادل مسلمان في مسألة: هل يدخل الملحد النار؟! كما وقع عند موت ستيفن هوكينج!

نعود إلى السؤال: ما العمل؟!

لقد وزع الله المواهب كما وزع الأرزاق، وإجابة السؤال يعرفها كل إنسان في نفسه من نفسه. وحيث أن الثغور كلها تشكو الندرة في العاملين فلا يكاد يوجد مسلم إلا ويستطيع أن يفعل شيئا يصب في النهاية لمصلحة الأمة، لكن المهم الآن هو التركيز على "واجب الوقت" إذ الواجبات كثيرة كثيرة حتى حين كانت الأمة في ذروة قوتها.. وواجب الوقت الآن هو معركة تحرير الأمة من الاستبداد والاحتلال، وكلاهما في عصرنا هذا شيء واحد: الاستبداد هو مقدمة الاحتلال، والاحتلال هو العمق الاستراتيجي والسند الأكبر للاستبداد. وأي مجهود يُصرف في غير معركة التحرير هذه فهو أقرب إلى الهباء، بل لعله يكون إثما.



أمور كثيرة تحتاجها معركة التحرير هذه، سأضع منها هنا أمورا في غاية الأهمية رغم أنه يمكن الحصول عليها بسهولة وبلا مخاطر أيضا.

١. المعلومات

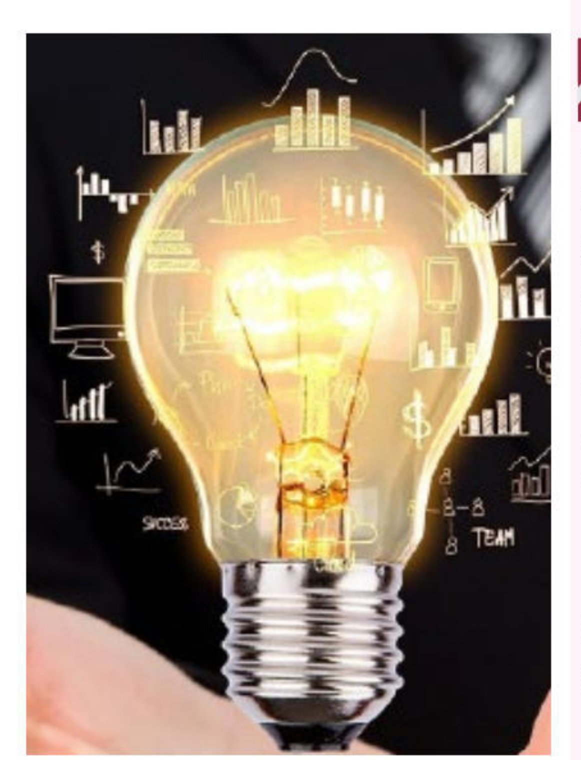
ما يعرفه أعداء الحركات الإسلامية عنها أكثر مما يعرفه أفرادها عنها، ولو تصورنا مصارعة بين مصارع قوي لكنه مغمى العينين وآخر ضعيف ولكنه مبصر لكانت الغلبة للضعيف المبصر، فكيف لو كان الحال أن القوي هو المبصر والضعيف هو المغمى العينين؟! ذلك مثل الحركات الإسلامية وحركات المقاومة والحركات الثورية مع أعدائها.. هناك فارق ضخم في المعلومات. وهذا سبب كثير من تجارب الفشل، تخوض الحركة الإسلامية أو الثورية معركة وهي لا تعرف عدوها من صديقها، لا تعرف حتى بعض الاختراقات التي تجري في صفوفها، لا تعرف مفاصل النظام الذي تواجهه، لا تعرف -مثلا- من هم أهم خمسين شخصية فيه؟ أين يقع أهم خمسين مكان يشهد الاجتماعات المؤثرة أو على الأقل ما أهم خمسين موقعا ينبغي السيطرة عليه أو حراسته أو مراقبة من يتردد عليه؟ ما هي خريطة القوى الاقتصادية والسياسية التي تتحكم في صناعة القرار؟ ما خريطة الأجنحة داخل أروقة السلطة وما الخلافات التي بينهم وكيف يديرون معركتهم ... إلخ!

مثلا:

ما هي أهم المناطق التي إن اشتعلت أدى هذا إلى ثورة في عموم القطر؟ كيف يمكن إشعال ثورة فيها؟ ما هي احتياطات النظام لمواجهة حركة ثورية مقاومة في لحظات الطوارئ، كيف يمكن فهمها واكتشافها؟ من الذي يمكن أن ينحاز إلى الثورة في لحظة ما بالترغيب أو الترهيب، وكيف يمكن أن يُساوَم أو يُجَنَّد أو يُسقط؟

أمور كثيرة للغاية، وقد تكون كلها معروفة أو مكشوفة لكن كل معلومة منها عن واحد فحسب ولا يحتاج الأمر إلا إلى الجمع والتصنيف. تثور أحيانا فكرة صناعة منصة ثورية على الانترنت ليضع كل من يعرف معلومة يحتمل أنها مهمة معلومته عليها، ثم يتولى فريق التصنيف والتحليل والفلترة لإزالة المعلومات المشوشة والمغلوطة والمبالغ فيها ونحوه.

٢. ابتكارات علمية



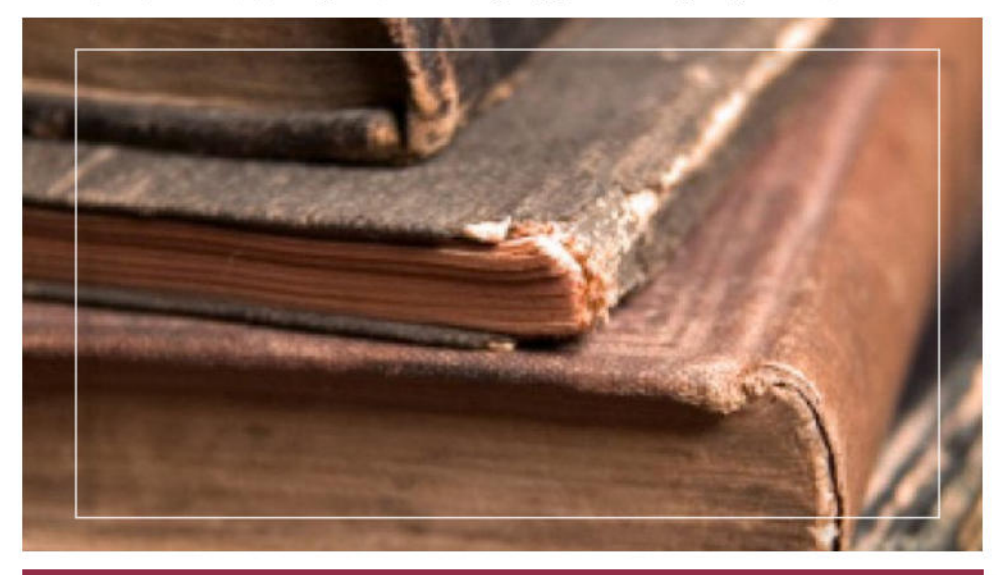
مع التقدير الكامل لأن حالة البحث العلمي منهارة في بلادنا، وأن أمر إيجاد ابتكار علمي متعثر ومتعسر أيضا، إلا أن أصل أي ابتكار علمي هو كونه "فكرة"، والفكرة يفتح الله بها على من يشاء من عباده، ولعل رجلا في زاوية ما من الأرض يجد ويسعى حتى يرى الله منه الصدق فيفتح عليه بشيء بسيط لكنه يغير الموازين.

إن بين أمتنا وأعدائها فجوة علمية هائلة، وتظهر هذه الفجوة بقوة في مسألة كالطيران والسلاح الكيميائي التي نرى آثارها في سوريا وفي كل منطقة تكاد تخرج فيها الأمة عن هيمنة النظام العالمي، حينئذ لا يملك المقاتلون على الأرض مهما كانت بسالتهم أن يفعلوا شيئا.. تلك النقطة تحتاج سعيا وبذلا هائلا على مستوى التفكير لدى المتخصصين في الطيران والهندسة والاتصالات والكيمياء لا أقول ليهاجموا بل فقط ليعيدوا توازن الردع بين أي حالة مقاومة وثورة وبين الاستبداد المسنود بالاحتلال.

وكلما كان الابتكار العلمي سهل التنفيذ سهل الانتشار كلما كان أقوى وأفضل، لأن كل ما من شأنه أن يكون بسيطا ومنتشرا بين أفراد الأمة كانت الأمة في حاجته أكثر.. لأن دخول الأمة كلها في معركة التحرير هو خطوة لا بد منها في كل حال.. بل إن تاريخ هزيمة الأمة هو تاريخ انفصال طليعتها الثورية المقاومة عن عموم الجماهير، وهذا الانفصال هو الأمر الذي توصي تقارير المراكز البحثية الغربية بتوسيعه وتعزيزه وتأكيده لكي يسهل على العدو سحق الثورة والمقاومة، التي هي بالنسبة للأمة كالسمك بالنسبة للماء.. إن انفصل عنها هلك وصِيد.

٣. ترجمات

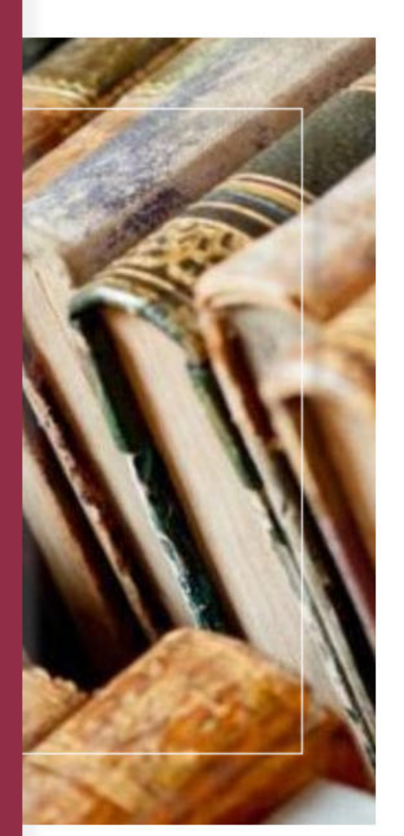
يقع على المترجمين عبء هائل، ودورهم ضروري لا غنى للأمة عنه. إن الإنتاج الغربي في العلوم الأمنية والعسكرية ومكافحة التمرد (أي: الثورات وحركات مقاومة الاحتلال والاستبداد) إنتاج ضخم، وأقل القليل منه هو ما ترجم إلى العربية، بل إنهم ترجموا بعضه إلى العربية بأنفسهم ليكون مرشدا لضباط الأمن والعسكر العرب.. ولا شك أن بعضه سري غير منشور، لكن المنشور فيه فوائد كثيرة للغاية، وبعضه يدرس في الجامعات الغربية التي هي من مصانع إنتاج الساسة وصناع القرار ومستشاريهم.



ثمة نهر كبير ينتظر الترجمة من التقارير التي تصدرها وكالات الأمن والاستخبارات ومن تقارير باحثين متخصصين في مكافحة الإسلاميين (ربما يندهش البعض إن عرف أن ثمة تخصص في أمريكا اسمه "تدجين الإسلاميين"، رأيت هذا في السيرة الذاتية لأنجيل راباسا الذي كتب تقرير راند ٢٠٠٨ م : صعود الإسلام السياسي في تركيا) ومن مذكرات العسكريين والأمنيين والسياسيين الذين أداروا معركتهم في أرضنا وبلادنا التي احتلوها كما في أفغانستان والعراق وغيرها.. هذا فضلا عن وثائق المخابرات التي تنشر بعد رفع السرية عنها بعد عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة بحسب قوانين النشر وأهمية الوثيقة.

ولا يقتصر الأمر على الترجمة من الإنجليزية وحدها.. الفرنسية والألمانية وحتى الروسية والصينية، ففي تلك البلاد تحديات أخرى ومدارس أخرى وأفكار أخرى، وبعضها تتطلع لتكون قوة عظمى ولترسم لنفسها النفوذ والمستقبل والاستراتيجية، وظهر فيها منظرون سياسيون وقيادات عسكرية وأمنية خاضت حروبا ومعارك إما مع المسلمين كما في تركستان الشرقية والشيشان وكشمير أو مع غيرهم في محيطهم الاستراتيجي.

تلال هائلة من الكتب القيمة التي تنتظر الترجمة، والتي يتوقع أن تكون ترجمتها مثيرة لأفكار قوية في النهوض والمقاومة فالحكمة ضالة المؤمن. وكثير من القيادات الثورية والمقاومة ليس لديهم الإمكانية ولا الوقت ولا الطاقة لمتابعة المهم الذي يصدر في لغته الأصلية.



المهم.. المهم.. المهم

أن يُختار الكتاب بعناية لتكون أفكاره إضافة حقيقية لمعركة تحرير الأمة.. إنه من المؤسف المثير للمرارة والشفقة والحسرة أن تكون غالبية الترجمات روايات خيالية ومسرحيات وأشعار وأمور هي إن لم تضر فلن تنفع، وإن نفعت فنفعها ترف يوجد ما هو أولى منه ألف ألف مرة! فإن الغريق والحريق والمسحوق لا يبحث في الترف حتى ينجو من محنته أولا.

٤. ملخصات وفهرسة

فمن لم يكن من أهل الترجمة، فليكن من أهل التلخيص أو من أهل الفهرسة، وهو أمر يستطيعه كل من يجلس على الفيس بوك وتويتر ويوتيوب بالساعات الطوال لا يفعل شيئا مفيدا.. فكما نحن أمام كم هائل ينتظر الترجمة فإن لدينا كما هائلا من الكتب والمواد المترجمة التي يتعذر الاستفادة منها لتنوعها وتشعبها وربما حجمها الكبير.

نحن إذا كنا نتحدث عن مصر -كمثال- فإن الحركة الثورية في مصر يجب أن يكون لديها إلمام بعدد من الأمور لكي تحسن خوض معركتها منها: العلوم الأمنية والعسكرية لا سيما ما يتعلق بمصر وما كتبه صناع القرار والأمنيون الذين عملوا في مصر منذ نابليون وكرومر ومايلز كوبلاند، طبيعة الشعب المصري وخصائصه، تاريخ حركات المقاومة لا سيما حركات المقاومة في مصر نفسها، العلوم الاجتماعية التي تتعلق بإدارة ثورة كعلم الاجتماع السياسي وعلم نفس الجماهير.

في كل باب من هذه الأبواب توجد الكثير من الكتب والمؤلفات، حتى ما هو موجود باللغة العربية.. ربما يضيق وقت العاملين في الثورة والمقاومة عنه، فيمكن لكثير من الشباب الذين يسألون: ما العمل؟ أن يعكفوا على تلخيص هذه الكتب وإخراج خلاصاتها ليكون فهمها أسهل وأسرع.



مهمة الفهرسة هذه مهمة عظيمة لو وُجِد لها الرجال.

المقاومة الفلسطينية
بين العسكرة والعمل الشعبي

لمى خاطر



"منذ بضع سنوات نشأ جدل فلسطيني داخل الأوساط السياسية والثقافية والإعلامية حول أشكال المقاومة الفلسطينية المطلوبة في مواجهة الاحتلال، وكانت هناك حالة افتراق واضحة بين من يؤمن بالعمل العسكري ويرى ضرورته، وبين من يرى اعتماد أنماط شعبية سلمية تبتعد عن استخدام السلاح."

تعمقت حالة الافتراق بين الجانبين لأسباب سياسية في الغالب، ولأن أكثر من طالبوا بالمقاومة السلمية وأدانوا المسلحة كانوا منطلقين من اعتبارات مراعاة مشروع السلطة الفلسطينية السياسي في الضفة الغربية، والذي من مقوماته محاربة المقاومة المسلحة وملاحقة عناصرها، وفقاً لالتزامها بقواعد التنسيق الأمني بينها وبين الاحتلال الصهيوني.

أي أن مشروع السلطة المناوئ للعمل العسكري في مواجهة الاحتلال اقتضى في أحيان كثيرة إبراز لافتة المقاومة السلمية أو الشعبية، والترويج الإعلامي لها، مقابل شيطنة العمل العسكري، وجعله سبباً في الكوارث التي حلت بالفلسطينيين منذ دخول العسكرة الكثيفة على خط المقاومة الفلسطينية. وقد كان يمكن فك الاشتباك بين المفهومين، أو بين أنصار النمطين الشعبي والمسلح، لو كانت هناك دراسة واعية لأنماط المقاومة مبنية على سؤال الجدوى أو عدمها، ومتحررة من دوافع الاصطفافات السياسية ثانيا، لأن النظر الواعي في واقع الحال الفلسطيني يقول إن كل أنماط مواجهة الاحتلال مطلوبة، وإن كل شكل له إيجابياته، ويساهم في دفع مسيرة التحرر، أو على الأقل إبقاء شعلة المقاومة متقدة، على الأرض، وفي نفوس الفلسطينيين.

" لكن من المهم قبل كل شيء الوعي بحقيقة أن احتلالاً من نمط الاحتلال الصهيوني في فلسطين لن تنهيه إلا قوة مسلحة كبيرة، توقع في صفوفه خسائر مادية مباشرة ومستمرة، فالإثخان من أهم عوامل حمل المحتل على إبصار كلفة احتلاله، فكيف حين يكون المحتل مغالياً في تقديس عنصره البشري، وفي تحصين جبهته الداخلية، القائم استقرارها أصلاً على وفرة الأمن لعناصره بشكل خاص وللمجتمع بشكل عام؟

وواقع الحال أيضاً يقول إن كثافة العمليات العسكرية المركزة في الضفة وغزة خلال انتفاضة الأقصى التي اندلعت عام ٢٠٠٠م قد أجبرت الاحتلال على الانسحاب من غزة عام ٢٠٠٥، بعد عجزه من صد موجة العمليات التي بدأ عودها يشتد في غزة إلى درجة تمكنها من استخدام تقنية الأنفاق في تفجير المواقع الصهيونية، وإلى تفجير بعض دبابات الاحتلال عبر العبوات المركزة، ثم تعاظمت قوتها بعد انسحاب الاحتلال، وشهدنا فعلها في حروب غزة الثلاث.



في الضفة الغربية، كان إدراك الاحتلال لخطورة الواقع الأمني لديه بعد موجة العمليات العسكرية خلال انتفاضة الأقصى دافعاً له لتوجيه ضربات قاسية لها، تمثلت في عملية السور الواقي عام ٢٠٠٢ إذ اجتيحت الضفة وصُفي واعتُقل المئات من المقاومين، وصولاً إلى تأسيس حالة أمنية جديدة عادت السلطة الفلسطينية لتكون شريكة فيها منذ عام ٢٠٠٧ ، واستكملت تعاونها الأمني مع الاحتلال الذي كان قد بدأ منذ توقيع اتفاقية أوسلو ثم دخول السلطة للضفة وغزة عام ١٩٩٤ ، ثم توقف عند اندلاع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠ ، وعاد ليشتد في ملاحقة المقاومة منذ أحداث الحسم في غزة، حيث اتخذت هذه الأحـداث ذريعة لتصفية واسعة لخلايا المقاومة المسلحة، ولمحاصرة جميع أشكال العمل الوطني والتنظيمي.

كانت الخسائر التي تكبدها الفلسطينيون كضريبة للعمل المسلح تستخدم ذريعة للتنفير من هذا النمط، وغابت مفاهيم التضحية وضروراتها، وحتمية الخسائر البشرية والمعنوية لـدى أي شعب يواجه الاحـتـلال، مثلما غُيبت الإيجابيات والتغيرات الكبرى التي تصنعها المقاومة المسلحة، والمراحل التي يمكن أن تقفز إليها لو استمرت ودُعمت، ولم تشترك أيدٍ فلسطينية في وأدها.

في المقابل، كان خيار المقاومة الشعبية السلمية يواجه بشيء من التوجس والتشكيك لدى معتنقي خيار العسكرة، وخصوصاً لأن السلطة الفلسطينية وأدواتها الإعلامية كانت تتبنى ذلك الخيار وتروج له عبر أدواتها الإعلامية، رغم أن هذه السلطة لم تكن صادقة في تبنيها خيار المقاومة الشعبية والدفع باتجاهها، وكثيراً ما قمعت تحركاتها واعتقلت الناشطين فيها خلال السنوات الماضية.

صحيح أن المقاومة المسلحة ينبغي أن تكون أساس العلاقة مع المحتل، وهي أكثر الأشكال جدوى في مجابهته، وحمله على التنازل، حتى لو كان تنازلاً مرحليا، وصحيح أنه ليس لنا أن ننتظر تحرير فلسطين بالعمل الشعبي السلمي غير المسلح، لكن ثمة إيجابيات للعمل الجماهيري الشعبي لا يجوز إغفالها، ونستطيع استخلاص جدواها باستحضار تجربة الانتفاضة الفلسطينية الأولى، التي كانت كثيفة في فعلها الشعبي في سنواتها الأولى، وكان هذا الفعل مصدر إزعاج كبير للاحتلال، سارع للالتفاف عليه بتوقيع اتفاقية أوسلو التي أجهضت روح الانتفاضة الأولى، وأوقفت مدّها، وحاصرت إمكانات تطورها.



"يمكن تلخيص أهمية المقاومة الشعبية الجماهيرية في قدرتها على إدماج قطاعات واسعة من الجمهور فيها، لأنه لا يسع جميع الناس أن تحمل السلاح، فبدلاً من أن تتحول غالبية الجمهور إلى مقاعد المشاهدة والتأييد عن بعد، يمكنها عبر أنماط العمل الشعبي أن تكون عناصر فاعلة لا خاملة، فهو عمل يستوعب الرجال والنساء والأطفال وكبار السن، إذا أدير بآلية صحيحة، ونجح في تحفيز المجتمع كله على النهوض، وأقنعه بضروراته."

ثم إن رسالة الحشد التي يبرقها العمل الجماهيري مهمة وبالغة الدلالة، إذا كان هذا العمل موجهاً في سياق زمني ومكاني ذكي، وإذا نجح في استثمار غضبة الجمهور المباشرة لحدث ما، مثلما حدث في اعتصام باب الأسباط في القدس في تموز 2017 ، عقب قضية البوابات الإلكترونية حول المسجد الأقصى التي حاول الاحتلال فرضها كأمر واقع، ثم تراجع عنها تحت ضغط الاحتشاد الشعبي الواسع، الذي كان في مكانه وزمانه الصحيحين، أي حول الأقصى مركز الحدث، وعقب الإجراء الصهيوني مباشرة، مما أسهم في تراجعه الفوري عنه قبل أن يتحول إلى أمر واقع.

كما أن المقاومة الشعبية التي تنجح في دمج قطاعات واسعة من المجتمع فيها تعين على كسر حاجز الخوف من الاحتلال، خصوصاً إذا كانت التظاهرات قرب نقاط التماس، وسقوط الرهبة من العدو مقدمة أساسية لمقاومته بأدوات أخرى، وللتحرر من السطوة النفسية التي يحدثها السلاح، وشكل العسكري المدجج فيه، كما أن الانخراط في العمل الشعبي يربي أفراد المجتمع على المسؤولية تجاه واقعهم، بدلاً من المشاهدة والانتظار، وافتراض أن الفعل مطلوب من غيرهم، فحين يعي كل فرد أن بإمكانه فعل شيء من خلال موقعه، ستنتفي السلبية واللامبالاة من نفوس الناس، ويظل نداء الواجب لصيقاً بغالبيتهم.

إن المزاوجة بين مختلف أشكال المقاومة ممكنة وضرورية ومطلوبة دائماً، لكن يلزمها أولاً توعية المجتمع بضرورات وجدوى كل شكل، وبأهمية كل نمط في مكانه وزمانه الصحيحين، وبمسؤولية كل فرد إزاء هذه الأنماط، وموقعه منها، وبأهمية أن يكون لكل عنصر في المجتمع دور في مشروع التحرير الكبير، وإذا حضر الوعي بهذه القضية ستتحرر الإرادة الجمعية من قيود اليأس

والتغاضي، وستعود لها بالتدريج روح الإقدام، ولذلك تحديداً يبدو مهماً أن يكون خطاب التوعية بالمقاومة وأشكالها وضروراتها منطلقاً من دوافع نقية ونوايا سليمة تتحرى المصلحة العامة، بعيداً عن المخاتلة السياسية التي ترمي من خلال ادعائها دعم العمل الشعبي إلى قتل روح المقاومة في نفوس الناس وبث الإحباط في أوساطهم، بحيث لا يعودون مكترثين بالمساهمة في أي نمط رافض للاحتلال، حتى لو كان بمستوى المشاركة في حشد جماهيري سلمي لا يكلف شيئا ولا تترتب عليه ضريبة.



إن مسؤولية توعية المجتمع وتأهيله لاستعادة روحه النضالية هي مسؤولية أولياء المقاومة الحقيقيين وحراس مشروعها والمؤتمنين عليها، وهي مسؤولية عظيمة تتراوح بين التعبئة المعنوية المستمرة، والتوعية الدقيقة الذكية، واستثمار الجماهير في سياقات صحيحة، وتوظيف غضبتها في الاتجاه المناسب.



كنت معهم (١)

شاهد على اعتقالات الإسلاميين بالجزائر

— الصغير منير —

السجون في كل دول العالم العربي تديرها وزارات الداخلية أو العدل، وهما من أفسد الوزارات وأكثرها خدمة للاستبداد والطغيان، فليس غريبا على الإطلاق أن تكون السجون وما يحدث فيها نموذجا مصغرا من الفساد والطغيان والعفن والاستبداد الذي تمثّله هاتان الوزارتان.

الأدبيات والمذكّرات والشهادات والأفلام الوثائقية وتحقيقات وتقارير منظّمات حقوق الإنسان حول السجون في الدول العربيّة كثيرة جدّا وبكل اللغات، لهذا فلن تكون هذه المقالة حديثا عن وقائع وأحداث يومية وقعت داخل السجون في الجزائر خلال الفترة الممتدّة من خريف ١٩٩٢ إلى أواخر عام ١٩٩٩، وإنما ستكون تلخيصا للملامح الكبرى حول حياة المساجين فيها وحول طريقة الأجهزة المشرفة على إدارة السجون خلال الفترة نفسها.



وأزعم أن تجربتي الشخصية ومعايشتي لآلاف المساجين خلال الفترة من ٩٢ إلى ٩٩ يمكن أن تكون كافية للكتابة حول الموضوع من المنطلق المذكور آنفا؛ فقد مررت على السجن العسكري في المرسى الكبير بوهران، ثم السجن المدني في المدينة الجديدة بوهران أيضا، ثم السجن المركزي بمدينة الشلف، ثم سجن مدينة تيارت. ورغم أن هناك سجونا أكثر قسوة وحدثت فيها أهوال ومآس؛ مثل سجون البرواقية و تازولت (لامبيز) وسركاجي والحرّاش؛ إلا أن تحويل وتسفير المساجين من هذه السجون ثم التقائي بعدد كبير من المساجين بعد ٩٩ أتاح لي أخذ صورة واضحة ومعلومات كافية جدّا وموثوقة، تسمح لي باعتصار تجارب هذه الفترة.

وبرغم ما أشرتُ إليه سابقا من كثرة الشهادات والتقارير والمذكّرات حول ما حدث في السجون العربية، إلا أنّ الأمر في التجربة الجزائرية على خلاف ذلك تماما، بحيث لم يُكتب عن مآسي السجون وذكرياتها ومجازرها وأحداثها اليومية سوى شيء قليل شحيح، يهدّد باندثار آثارها واندراس ذكرها، وإمكانية إنكارها أو تحريفها بعد موت من عايشها.

وبرغم ذلك سأحاول هنا ألّا أذكر إلّا ما لا يمكن إنكاره، وأن أتجنّب التحليل، وأن أعتمد الأسلوب الوصفي السردي، وجمع المتفرّقات لتشكيل صورة واضحة.

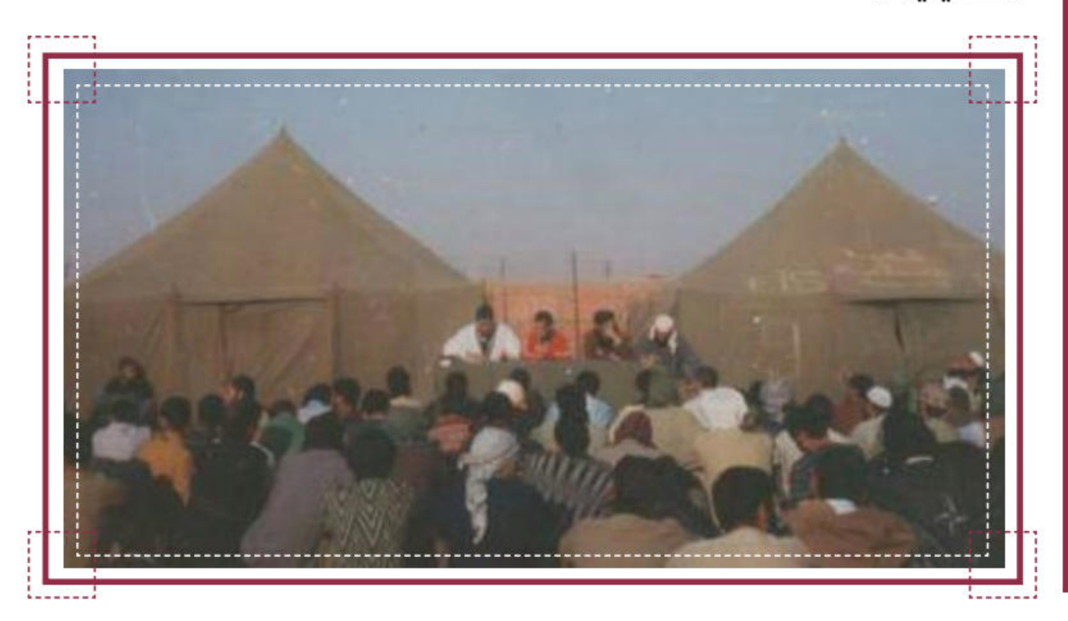
١ كانت قرارات نفي أعضاء الجبهة الإسلامية للإنقاذ ومناصريها، وكل من يشمّ منه رائحة المعارضة للانقلاب العسكري عام ٩٢ إلى المحتشدات ورميهم في السجون، قد اتُّخذت قبل الانقلاب بوقت قصير، وكان التفكير فيها وتنفيذها لاحقا وتسيير المحتشدات في الصحراء وإدارة السجون، ارتجاليا فوضويا يفتقد أدنى شروط الاحتراف والمهنية. ولم يكن العسكر والاستخبارات يومها ولا وزارة الداخلية والعدل تهتمّ في الحقيقة بأي شروط ومعايير، وإنّما كان همّها الأوّل والأخير هو عزل وإقصاء أكبر عدد ممّن يمكن أن يزعج الانقلابيين أو يشكّل خطرا على مشروعهم الاستئصاليّ وإفراغ الساحة السياسية والشعبية منهم، وقد بدا ذلك واضحا جدّا في الطريقة التي اعتقلت بها قيادات الجبهة الإسلامية على مستوى الولايات والبلديات، من الذين صدر في حقّهم قرار النفي إلى محتشدات الصحراء، فقد كان اعتقالهم فوضويا ارتجاليا عنيفا كما كان نقلهم إلى المطارات ومنها إلى المحتشدات عملية أبعد ما تكون عن أيّ تخطيط جيّد أو تحكّم في تسييرها، وقد ذكر والي وهران الأسبق (المحافظ) بشير فريك في كتابه (التجربة الديموقراطية في الجزائر.. الثمن الباهظ والمآل الغامض) ما يؤكّد ذلك،



فقال: " كنا في الميدان شاهدين على الارتجالية التي قاد بها الجنرال العربي بلخير وزير الداخلية آنذاك آلاف الأبرياء إلى معتقلات ومحتشدات الصحراء، عن طريق مصالح الأمن والولاة المأمورين"، وقال: "عايشنا كيف كان السباق والتباهي بين الولاة لمن يرسل أكثر، عن طريق لجنة قيادة الأركان الولائية، من المواطنين المشتبه فيهم إلى معتقلات العار والخزي"، وقال: "يكفي تقرير سطرين من شرطي أو دركي أو رجل مخابرات يقول فيه إن المعنيّ يشكل خطرا على النظام العام؛ ليقتاد الفرد إلى معتقلات الصحراء... وكانت التعليمات تلح على تفادي تقديم الموقوفين إلى العدالة إذا لم تكن أدلة ضدهم؛ لأن العدالة ستطلق سراحهم وبالتالي تحويلهم مباشرة بموجب قرار إداري إلى المعتقلات".

> وكان السبب الأكبر لنجاح الانقلابيين في ذلك هو عدم تحضير الجبهة لأيّ بديل يكافئ احتمال الانقلاب العسكري؛ بل عدم التفكير أصلا فيه، ثم عنصر المفاجأة والصدمة والعنف والسرعة الذي أفقد القيادات والشباب والسياسيين تركيزهم، وشلّ قدرتهم على التفكير وردّ الفعل، وغطّى على كلّ الفوضى والارتجال والخلل الذي كانت تعاني منه أجهزة الدولة الأمنية والعسكرية والقضائية يومئذ.

٢ كانت كلّ السجون الموجودة في الجزائر التي استخدمها الانقلابيّون سجونا بناها الاحتلال الفرنسي، وبعضها كان أقدم من ذلك يرجع إلى العهد الإسبانيّ أو التركيّ، وكانت سجونا ضيقة قاسية تفتقد لكثير من المواصفات من حيث المساحة والإطعام والصحة وغيرها. ولم يستطع أو لم يرغب النظام الجزائري خلال ٣٠ سنة بعد الاستقلال أن يقوم بتجديدها أو توسيعها؛ فقد كان يراها كافية لأن تسع المعارضين والمجرمين، ولم يكن يتوقّع أن تصل الأمور إلى اضطراره لاعتقال مئات الآلاف من الجزائريّين، وقد صرّح المدير العام لإدارة السجون وإعادة الإدماج مختار فليون منذ أيّام أن عدد السجناء بالجزائر لا يتجاوز ٦٠ ألفا ؛ هذا والجزائر لا تعيش حالة حرب، فكم كان عدد السجناء في التسعينيات؟



وبرغم أن النظام تعامل باستخفاف واحتقار كبير للمساجين، الذين كان عددهم كبيرا جدّا، إلّا أنه اكتشف أن ضيق السجون وانعدام كلّ المواصفات والشروط في حدّها المتوسّط يخدمه في كسر نفسيات المساجين وإذلالهم وتحطيم معنوياتهم وإثارة كلّ أنواع الشحناء والخصومات بينهم، وبعث غريزة حبّ البقاء لديهم، حين يصبح المكان والماء والطعام والفراش لا يسعهم جميعا. وسوف نتحدّث عن هذا الملمح في فقرات لاحقة.



"والغريب أنه منذ عشر سنوات تقريبا شرع النظام الجزائري في بناء عشرات السجون في كلّ ولايات الجزائر؛ بل هناك ولايات بنى فيها أكثر من سجن، وهي سجون ذات مساحات كبيرة ومبنيّة بإحكام شديد، وما زال الجزائريون يتساءلون: لمن يبنى كلّ هذا العدد من السجون؟ فيستحيل أن يكون الأمر مجرّد تجديد للسجون القديمة؛ لأن ما بُني حديثا يتّسع لأضعاف ما تسعه السجون الجزائرية القديمة مجتمعة؛ فهل هو استعداد من النظام لأيّ طارئ أو ثورة شعبية بحيث يتفادى خطأ الماضي القريب ويكون في راحة من أمره وتستطيع سجونه استيعاب عشرات الألوف من المساجين ممّن يمكن أن يعارضوه أو يثوروا عليه يوما ما؟ ممكن.."

٣ كانت محتشدات الصحراء تجربة جديدة كلّ الجدّة على الشعب الجزائريّ وعلى النظام؛ فقد عرف الجزائريون المحتشدات التي كان يقيمها الاحتلال الفرنسي خلال الثورة، ولكنها كانت محتشدات داخل البيئة نفسها، بمعنى أنّها كانت تقع في الولايات نفسها التي تكون عمليات الثورة فيها عنيفة وكثيرة، وكان الذين يُحشَدون فيها عادة من أبناء نفس القبائل التي تسكن المنطقة، وكان الغرض منها هو فصل المجاهدين عن عمقهم وامتدادهم الشعبيّ وحرمانهم من الدعم والمأوى والمعلومات، ثمّ أصبحت هذه المحتشدات جزءا من التاريخ، يمكن تفهّمها؛ ففرنسا دولة محتلّة للجزائر وهي في حالة حرب معلنة مع الشعب الجزائريّ وهي عدوّ صريح أجنبيّ كافر، نستطيع بعيدا عن التبرير الأخلاقيّ تفهّم كلّ إجراءاته القمعيّة.



أمّا محتشدات الصحراء التي أقامها الانقلابيّون فقد كانت من ابتكارهم وثمرة تفكيرهم الشيطانيّ. لقد كانت كلّها في الجنوب البعيد، في الصحراء المقفرة القاحلة الملتهبة التي تنعدم فيها مظاهر الحياة ما عدا في حواضرها و بلدياتها، وكان أقربها يبعد عن ولايات الشمال بمسافة تتراوح بين ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ كلم، وهناك ما هو أبعد. وقد أعدّها الانقلابيّون على عجلة من أمرهم قبل الانقلاب بأسابيع معدودة، في غفلة عن الإعلام والأعين والمراقبين والشعب، بحيث لم يعلم بها أحد حتى تفاجأ الشعب الجزائري بهولها ومآسيها.

كانت هذه المحتشدات خياما منصوبة في الصحراء البعيدة، في مربعات وممرّات تحمل أرقاما تحيط بها الأسلاك وأبراج المراقبة العسكرية من كل كان، وتحاصرها الصحراء من كلّ جانب، يشرب المعتقلون فيها من مياه الصهاريج الصدئة التي لفحتها حرارة الصحراء، ولا توجد فيها مراحيض صحية، وإنّما هي حفر حفرها المعتقلون لقضاء حوائجهم، تجمع قاذوراتها الذباب والبعوض والحشرات وتزكم روائحها الكريهة الأنوف.

وقد كان عدد من هذه المحتشدات أقيم عمدا في المناطق التي أجرت فيها فرنسا تجاربها وتفجيراتها النوويّة؛ حيث كانت نسبة الإشعاع النووي تفوق بعشرات المرّات النسب الطبيعيّة، وقد ظهرت آثار ذلك على المعتقلين هناك حيث أصيب كثير جدّا منهم بالسرطان بكلّ أنواعه بعد خروجهم منها.



أعدّت هذه المحتشدات خصّيصا للقيادات الولائية والبلدية للجبهة الإسلاميّة، ثم نُقِل إليها المئات من الدعاة والأئمة والأساتذة الجامعيين وغير الجامعيين والمثقفين، وكلّ من توقّعت الاستخبارات وأجهزة الأمن أنّه سيكون خطرا على الانقلاب واستتباب الأمر له. وكان وسط المعتقلين في المحتشدات عدد من البسطاء الذين اعتُقلوا بشكل عشوائيّ، وقد بلغ عدد المعتقلين حسب جمعية معتقلي الصحراء ١٨٠٠٠ شخصا.

لقد كانت هذه المحتشدات الصحراويّة تمثّل نموذجا فذّا في القسوة والحقد الذي يضمره النظام الوظيفيّ والانقلابيّون العسكر على الشعب ودينه وانتمائه، وحرصهم على كسر إرادته وترويعه بأساليب فاق بعضها أساليب المحتلّ الفرنسيّ، بينما كان بعضها الآخر استنساخا لتجربته وأساليبه.

٤ لقد كان ٩٥ % من المعتقلين والمسجونين ممن لم يعرفوا تجربة الاعتقال والسجن قبل الانقلاب في ٩٢، وكانت أكثريتهم من الشباب والكهول ممّن يتوجّس النظام منهم خيفة لو أطلق سراحهم، لهذا فقد كان من السياسات الثابتة لأجهزة الأمن وإدرات السجون كسر نفسيات هؤلاء، وتحطيم معنوياتهم وإذلالهم وقهرهم وترويعهم بكلّ الأساليب القذرة، حتى تتأكّد من أنّهم لن يعودوا إلى المعارضة ومناكفة النظام في يوم ما. ولقد اعتمدت تلك الأجهزة أساليب كثيرة تشترك فيها كلّ أنظمة القمع والاستبداد في العالم العربي، ولكن لا بأس بالتذكير بها في سياق ما حدث في الجزائر أثناء التسعينيات، ولعلي ألّخصها فيما يلي:

- حشر أعداد كبيرة جدّا من السجناء في مساحات ضيّقة جدّا، بحيث لا يجد السجناء مكانا يكفي للنوم ولا الصلاة ولا الرياضة ولا المطالعة، وتثور بينهم بسبب ذلك المشاحنات والخصومات؛ حين تنبعث غرائز النفوس ويضعف الإيمان وينفرط وثاق الصبر، وقد بلغ مثلا في سجن تيارت أن كان المساجين ينامون على أبواب المراحيض وبين الأسرّة، وأن يكون حظ السجين مكانا بطول قامته في عرض ٣٠ سنتيمترا، وبلغ عددنا عام ١٩٩٥ في زنزانات سجن تيارت ١٨ إلى ٢٠ سجينا في زنزانة ٣ × ١.٨ متر، بحيث كان النصف ينامون والبقية مستيقظين لأنهم لا يجدون مكانا للنوم إلا بالتناوب مع إخوانهم.

- الحرمان من زيارات العائلات والأقارب لأدنى احتجاج أو مطلب يقوم به السجناء، وكم كان ذلك يؤثّر في نفوس المساجين خاصّة المتزوجين منهم، وإذا تذكّرنا مساحة الجزائر والمسافات بين الولايات التي تقدّر بمئات الكيلومترات فهمنا لماذا كانت إدارات السجون تفعل ذلك لتكسر به إرادات المساجين، وتجبرهم على التزام قراراتها والخضوع لها، وقد كان الحرمان من الزيارات أشدّ ما يكون أثرا وألما في الأعياد والمناسبات.

- الحرمان من الكتب والجرائد والمطالعة والقراءة، إمعانا في قهر المساجين ومصادرة الكتب، بل وصل الأمر في كثير من السجون - ومنها سجن تيارت - أن يُحرَم المساجين من المصاحف، ويُعاقب كل من يوجد عنده مصحف ،

ومنع مراجعة القرآن بطريقة جماعيّة، وهي طريقة معروفة عند المغاربة، وأذكر جيّدا حين جمعنا مدير سجن تيارت محمد ماديو في الساحة وهدّدنا بكل أنواع التهديد إن وجد الحرّاس لدينا كتبا دينيّة، خاصّة كتب سيد قطب ومحمد قطب. وقد وصل الأمر في بعض المراحل أن كان المصحف الصغير يُقسَم إلى أربعة أجزاء تُتَداول بين الزنزانات مرّة أو مرّتين في الأسبوع للمراجعة والحفظ، وقد كان ذلك من أشدّ العقوبات وطأة على المساجين الذين كان القرآن أنيسهم ومثبّتهم ومصدر قوتهم وصبرهم في محنة السجن، لولا أنْ خفّف الله عليهم في أكثر السجون بوجود عدد معتبر من حفظة كتاب الله المتقنين له من الأئمة والدعاة وخرّيجي الزوايا (المدارس القرآنية) الذين كانوا يحفّظونه لشباب ويراجعونه معهم.

- منع صلاة الجماعة في الفترات التي يُعاقَب فيها المساجين عقوبة جماعيّة، وإذا أدركنا ما تمنحه صلاة الجماعة من قوّة وتلاحم وألفة بين المصلّين في مثل ظروف السجن أدركنا إلى أيّ حدّ يكون ذلك عقوبة قاسية، بل قد وصل الأمر في كثير من الأحيان إلى المعاقبة على دعاء القنوت واعتباره سلوكا معاديا للنظام ومخلّا بالأمن.

- منع المساجين من الاستحمام لمدّة طويلة حتى تتّسخ أجسامهم وتتقشّر جلودهم، وإدارة السجن تعلم أن المساجين تعتريهم الجنابة ويحتاجون التطهّر منها للصلاة وتلاوة القرآن، وتدرك أن الوسَخ يوتّر الأعصاب ويجعل السجين قلقا ضيّق النفس، وقد مكثنا ستّة أشهر في سجن تيارت دون استحمام ولا اغتسال ولا حتى صعيد نتيمّم عليه؛ فلم نكن نجد إلا جدران الزنزانة نمسح بها على أيدينا ووجوهنا ثمّ نصلّي. وحتى حين كان يؤذن للمساجين بالاستحمام فقد كان ذلك تحت التهديد والاستعجال، وفي ظروف تفتقد شروط الستر والنظافة والهدوء.

- خلط الإخوة في القاعات مع مساجين الحقّ العامّ في القاعات والزنزانات والساحات، ممّا يخلّ بالتجانس النفسي والاجتماعيّ وبالاستقرار الأخلاقيّ، فسجناء الحقّ العامّ في غالبهم عنيفون وعدوانيّون ومثيرون للشغب والمشاكل، وأكثرهم يدخّن السجائر أو يدمن الحشيش ويغنّي الغناء الفاحش، ويسبّ الدين وينطق بفاحش القول.



وقد كان عدد من مساجين الحق العام تدفعهم إدارة السجن والحرّاس إلى استفزاز المساجين السياسيين، أو في قضايا العمل المسلّح والتحرّش بهم وتنغيص حياتهم بافتعال أيّ مشكلة ولو تافهة، تتدّخل على إثرها الإدارة بتبديل القاعات أو التحويل من السجن أو العقوبات التي تكون في الغالب الضرب أو العزلة.

> ولأنّ ثلث المساجين – أو أقلّ أو أكثر بحسب السجن والمرحلة – لم يكونوا ممّن نشأ وتربّى في محاضن الحركة الإسلامية، وكانوا حديثي عهد بالاستقامة والتوبة، فإنّ وجود سجناء الحقّ العام من المجرمين وتجار المخدرات والمنحرفين معهم وكثرة مخالطتهم كانت تستزلّ بعضهم إلى العودة لما كانوا عليه من التدخين والشمّة والتساهل في السلوك، وغيرها ممّا يبدأ صغيرا ثمّ يكبر مع الأيّام، ويزيد الوضع سوءا داخل الزنازين والقاعات والأفنية، وتكثر المناوشات والخصومات التي تضعف الصفّ وتؤثّر في روابط الأخوّة وتسهّل الاختراق، وتساعد إدارات السجون على التحكّم في الوضع وتكسير أي حراك بين السجناء للمطالبة بالحقوق أو تحسين الظروف أو حتى التدريس والحديث بشكل مريح.

وللحديث بقيّة ..

قطـع رأس القيادة

قــراءة مختصــرة لبحــث أمريكــي

م. أحمد مولانا



بينما كنت أقرأ في دراسة نشرها مركز راند عام ٢٠١٦ لصالح مكتب وزير الدفاع الأميركي بعنوان (استراتيجية مكافحة الإرهاب والتمرد في الصومال - تقييم الحملة على حركة الشباب).. لفت انتباهي ضمن المراجع إشارة لعدة أوراق بحثية تتناول قضية لم أقف على دراسات تناولتها سابقا باللغة العربية، ألا وهى مدى تأثير تصفية قيادات التنظيمات والجماعات المسلحة على مسيرة جماعاتهم، ومن ثم اتفقت مع صديق على ترجمة إحدى تلك الورقات البحثية، وهى بعنوان (فعالية قطع رأس القيادة في حملات مكافحة التمرد) للباحث باتريك جونستون. ونظرا لأن ترجمة الدراسة لم تُنشر بعد، فسأستعرض في هذا المقال بعض ما ورد فيها.

ما المقصود بقطع رأس القيادة؟

عرف الكاتب قطع رأس القيادة بأنه تكتيك رفيع المستوى، يشمل القبض على كبار قادة المتمردين أو قتلهم.

واعتمد في استخلاص نتائج ورقته البحثية على المعلومات الواردة في قاعدة بيانات تتكون من ١٦٨ حملة ضد حركات التمرد خلال الفترة من عام ١٨٠٣ إلى عام ١٩٩٩.وأسهب خلال البحث في بيان المتغيرات التي اعتمد عليها في إجراء عملياته الإحصائية، ولكن ليس هذا هو الشاهد في هذا المقال، إنما الشاهد الذي سأركز عليه يتمثل في مناقشته لحجج من يرون أن استعمال هذا التكتيك عديم الجدوى.

إذ يقر المؤلف أن معظم الباحثين يميلون إلى عدم جدوى ذلك التكتيك، ولكنهم حسب كلامه لا يستندون في دراساتهم إلى أبحاث منهجية، إنما يستمدون تحليلاتهم من دراسة حالات تعاني من التحيز في الاختيار والمغالطات الاستدلالية. أي أنهم يستنتجون نظرية مبنية على حالات تثبت رأيهم ابتداء، ويتغافلون عن الحالات التي تخالف ذلك.



فضلا عن أنهم يضعون سقفا مرتفعا لتداعيات تصفية القيادات، فإذا لم تؤد التصفية إلى انهيار فوري للجماعة يعدون ذلك فشلا، رغم أنه من الممكن أن يظهر التأثير المنهجي لقطع رأس القيادات عبر إضعاف المنظمات المتمردة مع مرور الوقت، مما يجعلها أكثر عرضة للهزيمة من المجموعات التي لا تعاني من قطع الرأس.

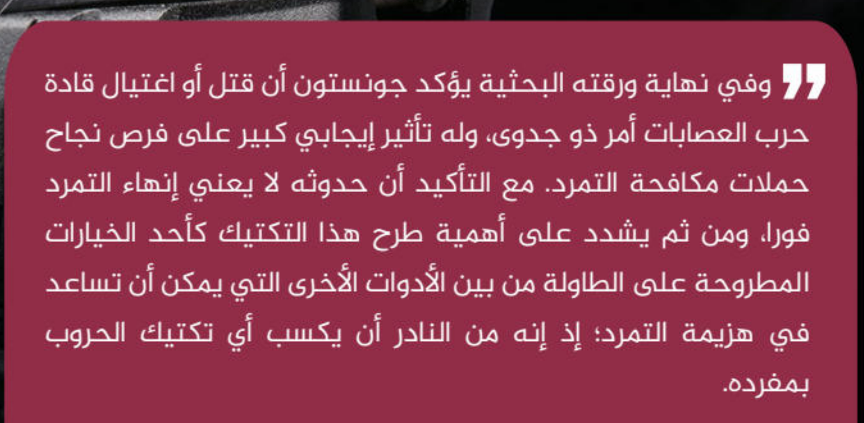
وبالمقابل يطرح جونستون حججا تثبت من وجهة نظره جدوى هذا التكتيك، فيقول إن العديد من الجماعات غير الحكومية العنيفة هي منظمات ضعيفة التنظيم، وصغيرة تعتمد اعتمادا كبيرا على المهارات والقدرات والكاريزما لقادتها الفرديين، وبالتالي تتأثر بفقدهم. ويضيف أن قتل أو القبض على قادة المتمردين يمكن أن:

- يضعف الروح المعنوية لأتباعهم، ويكسر إرادتهم على مواصلة القتال، إذ يشير قطع رأس القيادة إلى قوة وقدرات منفذي العملية، وقد يخيف الأتباع المتبقين على قيد الحياة عبر إرسال رسالة مفادها أنهم سيكونون الهدف القادم إذا ما واصلوا التمرد.

- يقوض وحدة المتمردين، ويزيد من المشاكل بينهم مما يؤدي إلى انهيارهم في النهاية. كما يمكن أن يؤدي الى القضاء على الأصوليين ويترك المجموعة في أيدي قادة أكثر اعتدالا.

- يعيق حركة التمرد وخاصة التخطيط والتنسيق للأنشطة؛ إذ إن إزالة قيادة التمرد تعطل الخطط والعمليات، وتحد من خبرة المجموعة ودرايتها، وتضعف قدرتها على تنسيق الهجمات.

- يدفع قادة المتمردين المقبوض عليهم إلى عقد صفقة، يتعهدون بموجبها بتشجيع أتباعهم على وقف التمرد؛ مما يمكن أن يؤدي بالمتمردين الآخرين إلى الاستسلام، وإضعاف التمرد.



وفي نهاية ورقته البحثية يؤكد جونستون أن قتل أو اغتيال قادة حرب العصابات أمر ذو جدوى، وله تأثير إيجابي كبير على فرص نجاح حملات مكافحة التمرد. مع التأكيد أن حدوثه لا يعني إنهاء التمرد فورا، ومن ثم يشدد على أهمية طرح هذا التكتيك كأحد الخيارات المطروحة على الطاولة من بين الأدوات الأخرى التي يمكن أن تساعد في هزيمة التمرد؛ إذ إنه من النادر أن يكسب أي تكتيك الحروب بمفرده.

هذه الخلاصة الذي توصل لها الكاتب تتشابه من بعض الأوجه مع قوله تعالى في سورة غافر: {وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ} [غافر: 5] أي ليقتلوه؛ إذ عبر التاريخ يركز أهل الباطل على قتل الرسل والأنبياء، ومن يحملون لواء الحق من بعدهم، لذا توعد الله عز وجل من يفعل ذلك بالعذاب الأليم: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [آل عمران 12].

و بالمقابل حرض سبحانه وتعالى أهل الإيمان على استهداف رؤوس الكفر قائلا في محكم آياته: { وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ}. [التوبة: 21]

استراتيجيات النصر

حسابات ردة الفعل

(٢)

خالد فؤاد

ضربة قاسية وموجعة تلك التي وجهتها إلى خصمك، ولكن يبدو أنك لم تقدر حسابات ردة فعل خصمه بشكل دقيق، فقد أعطيته فرصة ومبررا ليحرق بعض أوراقك المهمة في المعركة. انشغالك بالتخطيط لتحقيق ضربة موجعة ومؤثرة، وتغافلك عن الحسابات الدقيقة لردة فعل الخصم يساوي في أرض المعركة ليس فقط خسارة المعركة ولكن خسارة جنودك ومواردك التي يصعب أن تعوضها مرة أخرى، وهو ربما يعني نهايتك.

التاريخ يمتلئ بأحداث ضخمة وخسائر فادحة نتجت عن قرارات سياسية أو عسكرية من قيادات لم تقدّر ردة فعل الخصم بشكل دقيق، واستُدرجت من خلال تتابع الأحداث واحتدام الصراع إلى اتخاذ قرارات بعيدة عن حسابات المآلات وأقرب إلى نظرة ضيقة لمجرد إيلام الخصم، كانت نتيجتها بعض صفحات من كتب التاريخ تحكي كيف كانت نهايتهم بائسة ومذلة.


جنكيز خان

في الوقت الذي كانت دولة المغول تحت قيادة جنكيز خان تتصاعد قوتها وسيطرتها على المناطق المحيطة بها في بدايات القرن الثالث عشر الميلادي؛ حيث أسقط المغول في ذلـك الوقت إمبراطورية الصين، كانت العلاقات بين المغول والدولة الخوارزمية تحت قيادة محمد خـوارزم شاه، الممتدة من جبال زاجروس غرباً (تقع بين إيران والعراق)، إلى نهر سيحون في الشمال الشرقي (يقع في جنوب كازاخستان)، ونهر السند في الجنوب الشرقي (يقع في باكستان)، تخضع لشكل من أشكال التفاهم والترقب والحذر المتبادل بين الطرفين، إلا أنها ظلت علاقات بعيدة عن أجواء الحرب الدائرة في محيط منطقتهم، لم يلبث أن تغير هذا المشهد إلى حروب طاحنة بين الطرفين، كانت شـرارة انطلاق الحرب تستحق أن نقف عندها ربما تعطينا إشارة لما نحاول أن نلقي الضوء عليه في هذا المقال.

خلال تلك الفترة الحذرة توجهت مجموعة من التجار المغول على رأس قافلة في اتجاه الدولة الخوارزمية، في أثناء مرورها بإحدى المدن تعرضت القافلة لمذبحة على يد حاكم مدينة أوتران التي تقع في نطاق الدولة الخوارزمية (حالياً غير مأهولة بالسكان وتقع في كازخستان)، عندما علم جنكيز خان بالحادثة بالرغم من قسوتها إلا أنه قرر أن يرسل رسولا إلى الشاه لحل الأزمة ومطالبته بأن يرسل إليه حاكم مدينة أوتران الذي قام بالمذبحة حتى يقيم عليه حد الإعدام، هنا أقدم الشاه على اتخاذ قرار سيكون له مآلاته الكارثية فيما بعد، قرر الشاه إعدام الرسول وحرق لحى حراسه بالنار في محاولة

لتوجيه رسالــة موجعة إلـى جنكيز خان، عندمـا وصلت أنباء تلك الحادثة إلى جنكيز خان كانت النتيجة على ما يبدو متوقعة، ولكنها ربما غابت عن الشاه في ذلك الوقت، وسأنقل هنا أثر تلك الواقعة على جنكيز خان كما نقلها المؤرخ الفارسي عطاء ملك الجويني الذي عايش تلك الفترة: "لقد بلغ من أثر تلك الأنباء على جنكيز خان أن استشاط غيظاً، وأطاحت زوابع غضبه بصبره وسكينته، فلم يتمالك نفسه من شدة نيران الرغبة في الثأر والانتقام التي اشتعلت في جنباته، فأفاضت دموع عينيه، وبات من المستحيل إطفاؤها إلا بسفك الدماء"[1].

◆ هكذا أصبحت ردة فعل جنكيز خان تساوي الحرب المباشرة والشاملة على الدولة الخوارزمية، انطلق المغول في عملياتهم الحربية إلى أملاك الدولة الخوارزمية، واجتاحوا في طريقهم كل المدن، وقاموا بعمليات حرق وتدمير واغتصاب للنساء ملأت صفحات كتب التاريخ، حتى خضعت لهم بلاد فارس بالكامل في عام ١٢٢٠ م، وظل الشاه محمد خوارزم شاه طريداً ينتقل من بلد إلى بلد، حتى قضت عليه أحزانه ومات في أواخر عام ١٢٢٠ م.



(١) تاريخ الدبلوماسية للمؤلف جيريمي بلاك

يبدو مشهد سقوط الدولة ووفاة الشاه مأساوياً، ولكنه في نفس الوقت معبراً عن سوء تقدير لردة فعل الخصم والاعتماد في الأوقات بالغة الصعوبة على قرارات عاطفية، الهدف منها تحقيق نصر جزئي عن طريق إيلام الخصم أو مجرد الانتقام منه، دون إدراك وفهم لطبيعة الخصم، ودون أن يكون هناك حسابات دقيقة لقوة ردة الفعل، فيصبح القرار والفعل مهما بدا صغيراً لكنه يحمل في طياته نهاية صاحبه.

ربما تختلف الفيزياء عن قوانين إدارة الصراعات والأزمات؛ حيث تقرر الفيزياء أن لكل فعل رد فعل مساو له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه، إلا أن الوضع يختلف في قوانين السياسة والحروب وإدارة الأزمات؛ حيث بطبيعة الحال سيكون لأي فعل رد فعل معاكس، لكنه ربما يكون أكبر من الفعل نفسه بمئات المرات.

تظل المشكلة الأكبر في منهجية تحديد ردة فعل الخصم، هي تلك المتعلقة بحرج القيادة من الإحجام عن الفعل، ويبدو أن تلك الثنائية بين حسابات ردة الفعل والإحجام عن الفعل هي دائماً التي تدفع البعض إلى اتخاذ قرارات غير مناسبة، مدفوعاً بالخوف من الاتهام من قبل أنصاره بالإحجام عن الفعل وتوجيه الضربات للخصوم؛ ففي الوقت الذي تُظهر فيه التقديرات ردة فعل الخصم التي ستتسبب في خسائر فادحة، تندفع القيادة لاتخاذ قرارات تبعدها عن تهمة الإحجام، وتحقق لها نشوة نصر مزيفة، وتكون المحصلة نهاية حتمية دون تحقيق أي تقدم ملموس. خيط رفيع ذلك الذي يفصل ما بين القدرة على اتخاذ قرار والإحجام عن اتخاذ قرار، ربما هو نفس الخيط الرفيع الذي يفصل ما بين الجرأة والتهور؛ فالأول لا يعتمد فقط على الشجاعة بقدر ما يعتمد على دهاء وذكاء صاحبه الذي يستطيع أن يقدر جيدا ردة فعل خصمه، والآخر هو ذلك الذي يعتمد فقط على شجاعته وقدرته على التنفيذ دون تقدير جيد لردة فعل خصمه.

"يندرج تحت التفكير في حسابات ردة فعل الخصم عدة محددات من الأهمية أخذها بعين الاعتبار:

دائرة الصراع ستنتقل من مربع إلى مربع آخر أكثر سخونة وأشد تعقيداً، تلك هي القناعة التي يجب أن تدركها القيادة قبل اتخاذ أي قرار بتوجيه ضربة قاسية للخصم، فالأمر لا يتوقف فقط على حسابات ردة الفعل والقدرة على امتصاصها، ولكن يمتد إلى إدراك أبعاد المرحلة الجديدة التي سينتقل إليها الصراع كأحد مآلات ونتائج قرار توجيه الضربة للخصم، وهو ما يعني أيضا إدراك القيادة مدى ملائمة التوقيت والبيئة المحيطة للدخول في تلك المرحلة الجديدة من الصراع، هكذا يبدو أن توجيه ضربة للخصم يشمل الإعداد والتخطيط الدقيق، ليس فقط للضربة الموجهة، ولكن بالأساس للمرحلة التي تترتب على تلك الضربة، وكيف يمكن إداراتها بالموارد الموجودة، يتطلب هذا في الغالب قيادة تمتلك نظرة بعيدة المدى وليست نظرة قاصرة فقط على المدى القريب، يمكن أن نلحظ ببساطة تلك الفروق بين القيادة من خلال نتائج المعارك والصراعات التي دارت على مدار التاريخ والتي تدور حالياً."

◆ المتتبع للصراعات والحروب والأزمات المشتعلة على مدار التاريخ، يدرك أن ثمة أوراق قوة إذا استطعت الحصول عليها، لا يجب أن تطرحها في أرض المعركة أو أن تلوح بها أثناء الأزمة، ربما يكفيك فقط أن تمتلكها من أجل ردع خصمك، وربما امتلاكها ينتج عنه ردة فعل عنيفة لا تساوي بأي حال من الأحوال ثمن امتلاكها، للتحول من أوراق قوة إلى أوراق تسجل هزيمتك ونهاية وجودك.

◆ يدخل أيضا في نطاق حسابات وتقدير ردة فعل الخصم، حساب مدى الجاهزية على امتصاص ردة الفعل المتوقعة، ويعلم جيدا من يستطيع أن يبادر بفعل ويمتلك القدرة في الوقت نفسه على امتصاص ردة الفعل المتوقعة من الخصم، مدى اقترابه من تحقيق فوز في تلك الجولة، ولو استمرت الاستراتيجية المتبعة في إدارة الصراع على هذا النحو، للاحت في الأفق ملامح نصر حقيقي على الخصم.



المقاومة العراقية.. فصول من قصة الظفر (٢)

— عبدالغني مزوز —

تطرقنا فـي المقال السابق إلى تفوق المقاومة العراقية فـي استخدام أسلوب الألغام والعبوات الناسفة وتكبيدها للاحتلال الأمريكي خسائر فادحة في الأرواح والمعدات، ونستكمل الحديث في هذا المقال عن الأساليب الأخرى، مع تأكيدنا على أهمية توثيق تجربة المقاومة العراقية ودراسة أيامها وفصائلها وتكتيكاتها دراسة مستفيضة، تقف على مكامن قوتها وثغرات ضعفها وأسباب تراجعها وعجزها عن بناء مشروع سياسي جامع يستثمر انتصاراتها العسكرية، ويعبر عن هويتها ومواقفها وتطلعاتها.

الرمانات الحرارية

مع تصاعد زخم الهجمات التي تُشن بواسطة العبوات الناسفة، اتخذت قوات الاحتلال مجموعة من الإجـراءات قصد الحد من تأثير هذا السلاح، من أهمها:

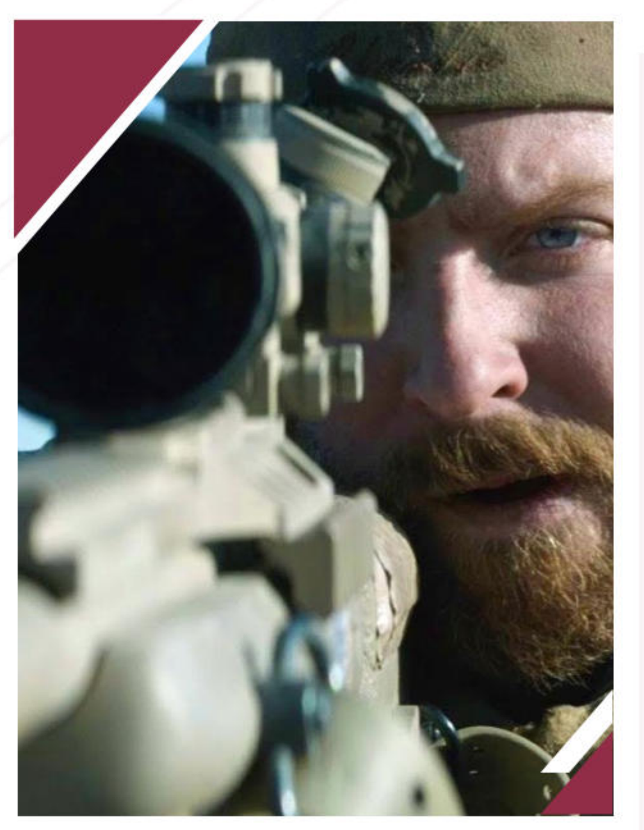
- تطـوير كاسحات ألغام تقوم بتفجير العبوات قبل مـرور الآلـيـات فوقها،
- زيادة تصفيح العربات وإضافة طبقات سميكة مــن الفولاذ إلــــى هياكلها،
- مراقبة الـطـرق بواسطة المتعاونين مـع الاحـتـلال والتبليغ عـن عمليات زرع الـعـبـوات وأيـضـا مراقبتها بواسطة المناطيد والـطـائـرات المسيرة،
- تقليل حركة الآليات العسكرية على الطرق وتركز حركتها داخل المدن؛ حيث يصعب زرع العبوات وتمويهها، فضلا عن وجود المدنيين واكتظاظ الطرقات بسياراتهم.

"هذه الإجراءات نجحت جزئيا في تقليص فعالية العبوات الناسفة، ما حـدا بفصائل المقاومة العراقية إلى التفكير في أساليب وأنماط قتالية أخرى تتناسب مع ما استحدثه الاحتلال من إجراءات دفاعية ووقائية. وفي هذا السياق ظهرت الرمانات الحرارية."

> الرمانات الحرارية هي قنابل يدوية مضادة للدروع روسية المنشأ، تعمل بمبدأ الانصهار الحراري، تُرمى القنبلة على الهدف فتفتح مظلة صغيرة لتشغيل الصاعق وتحقيق توازن نزول القنبلة فوق الهدف مباشرة، وعند اصطدامها تنفجر مولدة غازات نافورية ينتج عنها درجة عالية من الحرارة تُحدث خروقا في الدروع الفولاذية. تمكنت بعض فصائل المقاومة العراقية من صناعة وتطوير "رمانات حرارية" بديلة عن تلك التي تُنتج في روسيا، بجودة أعلى وبتكلفة منخفضة وإمكانيات بسيطة.

لقد أصبحت العربات العسكرية التي تسير وسط المدن صيدا متاحا لرماة "القنابل الحرارية"؛ حيث ينتظر المكلف بالعملية مرور آخر سيارة من الرتل ليقوم برمي الرمانة" عليها ويلوذ بالفرار بين الشوارع وأزقة المدن الضيقة، مستغلا انتشار العوارض الكونكريتية التي تغلق بها قوات الاحتلال منافذ الشوارع لمنع مرور السيارات المفخخة، ما يعرقل عمليات تتبعه وملاحقته. وتكمن أهمية هذا السلاح في سهولة حمله وإخفائه وتكلفته المنخفضة، وهو استجابة للتطور الذي عرفته الكاسحات الأمريكية. عشرات الأفلام التي نشرتها فصائل المقاومة وثقت استعمال هذا النوع من السلاح، وأظهرت بعض اللقطات حجم التدمير الذي يلحقه بالآليات العسكرية، وقد طور "الجيش الإسلامي في العراق" مقذوفات تصل نسبة تدميرها للآليات إلى أكثر من ٩٠ في المئة.

القنص



كان نشر الجيش الإسلامي في العراق فيلم "قناص بغداد" حدثا عالميا عبر عن حجم الورطة التي وضع فيها جورج بوش جنوده في العراق، لقد ظهر فيه جنود أمريكيون وهم يسقطون صرعى وسط آلياتهم العملاقة دون أن يتمكن زملاؤهم من فعل أي شيء إلا الانبطاح أرضا أو الاحتماء داخل الدبابات والهمرات في انتظار رحيل القناص، فلا أحد يعرف من هو الضحية التالية لقناص محترف ومثير للرعب أطلق عليه الأمريكيون اسم "جوبا".

"جوبا أو "أبو صالح" لم يكن ظاهرة فردية اتخذت من بغداد مسرحا لها، بل كان نمطا من أنماط المقاومة عم معظم أرجاء العراق، فقد فتك القناصة بجنود الاحتلال في مدن القائم والموصل والفلوجة، ورصدت القوات الأمريكية مبالغ ضخمة لمن يقدم معلومات عنهم. نشر فصيل الجيش الإسلامي في العراق أربعة أفلام وثائقية عن "قناص بغداد"، من ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٨ ترجم بعضها إلى ٩ لغات، وتضمنت معلومات عن أهمية سلاح القنص ومعطيات عن حصيلة القتلى، ولقطات واضحة عن استهداف الجنود الأمريكيين. وعندما ينجح قناص عراقي واحد وفي مدينة واحدة في قتل وإصابة المئات من المحتلين بينهم ضباط برتب عالية، فلك أن تتصور حجم الخسائر التي ألحقها العشرات من القناصين المحترفين بقوات الاحتلال في مختلف المدن العراقية."



أهمية عمليات القنص التي وثقتها أفلام المقاومة العراقية تكمن في تقويضها للسردية التي دأبت الدعاية الأمريكية على ترويجها، مثل: استهداف المقاومة العراقية للمدنيين، إخفاء العدد الحقيقي لخسائر الجيش الأمريكي عبر تلاعب البنتاغون بإحصائيات القتلى والمصابين من جنوده، الإشادة بشجاعة الجندي الأمريكي وشدة بأسه.. وهو ما أظهرت أفلام القنص عكسه تماما. وأمام عجز الجيش الأمريكي عن التعامل مع التحدي الذي مثله قناصو المقاومة لم يجد البنتاغون ما ينصح به جنوده إلا بالكمون داخل عرباتهم المصفحة، وعندما يضطرون للخروج فعليهم تأدية رقصات معينة بحيث لا يبقون في حالة سكون لتشتيت انتباه القناص! لكن لاحقا أعادت هوليوود الاعتبار لرجال المارينز في بغداد عبر مجموعة من الأفلام من بينها فيلم American sniper الذي يحتفي ببطولات قناص أمريكي في العراق!

الصواريخ والهاون

العبوات الناسفة والرمانات الحرارية والقنص اليومي الذي يتعرض له الجنود الأمريكيون، جعلهم ينزوون إلى داخل قواعدهم العسكرية ومجمعاتهم الحصينة، وهنا يأتي دور الهاونات وصواريخ الكاتيوشا كأسلوب استخدمته المقاومة على نطاق واسع. فلا يكاد يمر يوم دون أن تتعرض قاعدة أمريكية للقصف بالصواريخ أو قذائف الهاون. يتعذر توثيق خسائر الاحتلال الناجمة عن استخدام هذا التكتيك بسبب سياسة التكتم التي انتهجها البنتاغون، خصوصا إذا تعلق بالخسائر في صفوف الشركات الأمنية كبلاك ووتر وغيرها، لكن بعض العمليات لم يستطع الجيش الأمريكي إبقاء خسائرها طي الكتمان، مثل تلك التي استهدفت فيها المقاومة قاعدة الصقر جنوب العاصمة بغداد، ونقلت شاشات التلفزة مباشرة مشاهد الانفجارات الناتجة عن تدمير ترسانة ضخمة من الأسلحة المتطورة بينها طائرات مسيرة وقنابل ذكية وعربات عسكرية، وقدرت الخسائر بمئات الملايين من الدولارات، وعلق مصدر في الجيش الأمريكي بالقول: "إن قاعدة الصقر قد دمرت بالكامل وكأنه فعل زلزال".



الكثير من الصواريخ والقذائف التي استخدمتها فصائل المقاومة العراقية أُنتجت في ورشات سرية تابعة لها، ولا يقتصر أمر تطويرها على تحسن مداها ودقة إصابتها وشدة انفجار حشواتها فقط؛ بل أيضا في صناعة أشكال مبتكرة لمنصاتها وطرق إطلاقها؛ فقد نشر فصيل جيش الراشدين فيلما وثائقيا باللغتين الإنجليزية والعربية تضمن الكثير من العمليات المعقدة، منها استهداف رتل عسكري أمريكي بقذائف الهاون بعد توقيفه في موقع مدروس بواسطة عبوة تمويهية، وعملية إطلاق صواريخ من نوع كاتيوشا على أحد مقرات الاحتلال، وقد رُكّبت الصواريخ في صندوق سيارة صغيرة، لتتمكن من اجتياز الحواجز العسكرية ومن ثم إيقافها على مقربة من المقر المستهدف. وتُعد عمليات إطلاق الصواريخ والقذائف أكثر العمليات التي صُورت ووُثقت عبر آلاف من مقاطع الفيديو.

الكمائن والسيارات المفخخة

استُخدم تكتيك السيارات المفخخة من قبل بعض الفصائل العراقية، بينما امتنعت أخرى بسبب تحفظات فقهية عليه، لكنه من الناحية العسكرية البحتة كان تكتيك السيارات المفخخة خطيرا وغير قابل للردع والاحتواء، إلا بفرض حظر للتجوال يشل حركة المدينة برمتها.

أما الكمائن والاشتباكات ومعارك المدن فقد أكدت بواسطتها المقاومة العراقية تميزها وقدرتها على توظيف كافة التكتيكات القتالية دون أن تخرج بذلك عن إطار استراتيجية حرب العصابات، القائمة على استنزاف الخصم وتجنب المواجهة المباشرة مع قواته. وحتى معركة الفلوجة التي يمكن اعتبارها تمردا على مبادئ حرب العصابات فإنها في واقع الأمر لم تكن كذلك،

أولا:

لأن المقاومة لم تضع كل ثقلها في المعركة وإنما خاضها العشرات فقط من أفرادها

ثانيا:

لأنها كانت معركة حاسمة أو من المفترض أن تكون كذلك لولا تدخل بعض الجهات وإبرامها هدنة هي في صالح القوات المهاجمة، وقد تحدث بعض القادة لاحقا أن مشروع الاحتلال كان على شفى الانهيار إبان معركة الفلوجة حتى أن سجانين في (أبوغريب) أخذوا تعهدا من المعتقلين بأن يطلقوا سراحهم شرط أن لا يتعرضوا لهم بسوء. وقد تطرق أحمد منصور لجوانب من ملحمة الفلوجة التي عايش تفاصيلها في كتابه "معركة الفلوجة وهزيمة أمريكا في العراق"

ثالثا:

لأنها معركة أظهرت الوجه الحقيقي للاحتلال؛ فقد شاهد العالم حمما من الفسفور الأبيض والنابالم الحارق تصب على المدينة المحاصرة، وشاهدوا جنودا أمريكيين وهم يقومون بإعدام الجرحى ميدانيا، واستمعوا إلى شهادة النساء المغتصبات، وغيرها من الفظاعات التي جعلت من الفلوجة عارا يلاحق قادة الاحتلال وأعوانه أينما حلوا، وما تزال التشوهات الخلقية لأطفال الفلوجة والناتجة عن استخدام اليورانيوم المنضب، شاهدة على همجية الاحتلال وبربريته إلى يومنا هذا.



" قصة المقاومة العراقية جديرة بأن تروى، إنها ملحمـــة شعب عصامي خاض معركة التوحيد والحرية والاستقـــلال والسيـــادة بإمكانياته الذاتية، وعزيمة علـى الظفر والانتصار قـــل مثيلها، إن معظم الأسلحة التي استخدمتها المقاومة العراقية هـــي مـــن صنعها وابتكارها، حتى بندقية القنص التـــي استخدمها قناص بغداد هي من نـــوع "تبوك" مـن إنتاج معامـــل النظام السابق. نستذكر هذه العصامية في وقت قدمت فيه بعض فصائل الثورة في أكثر من بلد كل ما يمكن تصوره من تنازلات كي تحصل علـى مضادات للطيران أو صواريخ تاو أمريكية أو وتمويلا خارجيا لتستمر في " ثورتها" حتى نيل "الحرية"! "

حصرياً.. مذكرات الشيخ رفاعي طه (١)

طفولة بسيطة في قرية صغيرة من صعيد مصر المجهول

سجلها عنه وحررها: محمد إلهامي



وُلدت في ٢٤ يونيو ١٩٥٤م، في أجواء أزمة الإخوان المسلمين، وكانت أزمتهم بدأت في مارس، أي أنني وُلدت بعد بداية الأزمة بثلاثة أشهر، وكانت قريتى تُدعى نجع دُنْقُل، وكانت قرية صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء، وهي تابعة لمركز أرمنت محافظة قنا آنذاك، وأصبحت الآن تابعة لمحافظة الأقصر.



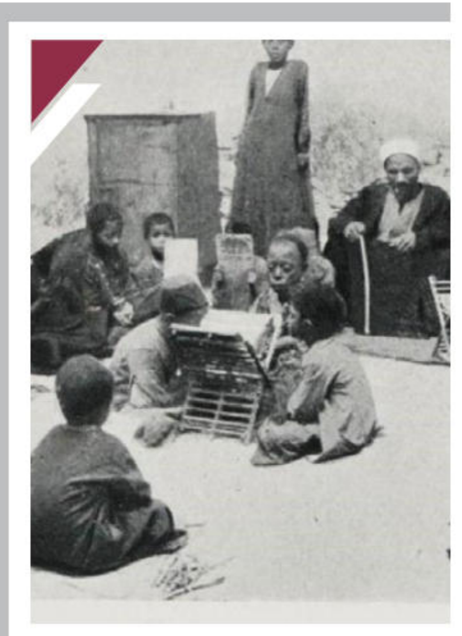
كان والدي من قرية تدعى المراعزة، وكذا أعمامي جميعهم، ونحن ننتمي لقبيلة تسمى الفريحات ينتهي نسبها لجعفر بن أبي طالب رضي الله عنه. وأما أمي فهي من نجع دنقل من سلالة ينتهي نسبها إلى تنقلا بالسودان، وهي أيضا تنتهي بالنسب إلى قليلة جعفرية، فيلتقي نسب والدي ووالدتي بالجعافرة سواء جعافرة السودان أو جعافرة مصر، ولست أعرف بالتحديد عند أي جدٍّ يلتقي نسبهما، لكني أتصور أن جدتي لأبي ووالدة جدي لأمي أخوات، لكن لا أعرف نسب الرجال في أي جد يلتقون.

ما أذكره من ميلادي هو من رواية أمي، لقد ولدت مريضا بالربو "حساسية الصدر"، وأتذكر أنني في سن الخامسة كانت تنتابني نوبات ربو شديدة جدا، ولم يكن بالقرية شيء من وسائل العلاج أبدا، وقد بلغت مرحلة الموت مرات عديدة، وكانت والدتي -كما روت لي- تعالجني بطريقة خاطئة، كانت أمي امرأة لا تعرف القراءة ولا الكتابة، وكانت تظن أنها إذا جعلت صدري إلى أسفل ورجليّ إلى أعلى أنها تساعدني على التنفس بشكل أفضل، إلا أن هذا كان يزيد من الأزمة لا يعالجها، وهذا الوضع هو مرحلة مميته لمريض الربو لأن الرئتين يزيد عليهما الضغط، ويتطلب الحجاب الصدري الجلوس أو الوقوف.

أول ما أتذكره بنفس دون رواية من أحد كان وأنا في سن الرابعة، في ذلك الوقت دفعتني ابنة عمتي "شربات" فوقعت على الأرض، فدخلت في يدي قطعة زجاج، ولما لم يكن في القرية أية وسيلة من وسائل العلاج، فقد جاءت والدتي فنزعت هذه القطعة فتدفق الدم غزيرا من الجرح الغائر، ثم أحرقت بعضا من الورق وبقايا مصاصات القصب فأحرقتها حتى استحالت رمادا، فأخذت من الرماد وكبست به الجرح ليتوقف تدفق الدم. إن خلو قريتنا من أبسط وسائل العلاج كثيرا ما أفضى إلى الموت، وإني أتذكر وفاة خالتي التي كانت في حال الولادة، وكانت أقرب مستشفى على بعد ثلاثة كيلومترات، فوُضِعت على عربة كارو يجرها حمار، وعندما وصلت كانت قد فارقت الحياة. لقد كانت قرية غارقة في الفقر والجهل.

كان جدي عمدة القرية، ومع هذا لم نكن نعرف الكراسي في بيوتنا، كانت الكراسي معدومة إلا في البيوت الكبيرة، أو في "منظرة العمدة"، وأما البيوت فالناس يجلسون على الدِكَك، وهي تقارب "الكنبة" المعروفة اليوم، ولكنها من الخشب، فهي قطعة خشبية طولها متران وعرضا سبعين سم، ولها ظهر يُستَنَد إليه كما لها مُتَّكأ على طرفيها يتكئ عليه الجالس.

ولذا فعندما خُتنتُ -وهو ثاني حدث أتذكره بنفسي- أجلسوني على "الماجور"، وهو وعاء كبير تصنع فيه المرأة عجينها، فإذا قُلب كان بوسع الطفل الجلوس عليه، ثم جاء حلاق القرية، والذي هو في نفس الوقت طبيبها ومعالجها ومسعفها، وهو الذي ختنني، ولم يكن ثمة وسيلة من وسائل التخدير، بل يداعبني فإذا غافلني قطع قطعة من هذه الجلدة التي تغطي الحشفة، فأصرخ صراخا شديدا، ثم يهدئني ويغافلني ثم يقطع قطعة أخرى فأصرخ، وهكذا، حتى تم الأمر بين صراخي الشديد من هذا الألم القاسي. فهذان الموقفان هما ما أتذكرهما بنفسي، وكانا عند الرابعة لأن والدتي كانت تقول بأن عمري أربع سنوات، ولا أتذكر قبل هذه السن أي شيء.



عندما كنت فـــي الخامسة أو السادسة بدأت في الذهاب إلى الكُتَّاب، وكان شيخه الشيخ بسطاوي هو من يُحفظنا القرآن، وكان رجلا طيبا وصالحا، ولم يكن لدينا شيء من وسائل الكتابة بل كنا نكتب على الأرض، ثم ظهرت الألواح فيما بعد حين كنت في التاسعة أو العاشرة، كانت من الخشب فكنا نكتب عليها بقلم من البوص أو نحوه يُبَلَّل في الحبر، ثم نمسحها بمادة طينية نسميها "الطَّفْلة"، أما هذه الأقلام فلم تكن معروفة لنا قط، ولعل هذا يُصَوِّر إلى أي حدٍّ كانت الحياة حينذاك شديدة الصعوبة.

فالعادة حينئذ أن تأتي النساء بالماء لغرض العجين والخبيز، فتلك مسؤوليتهن، ولم يكن في ذلك الوقت أفران مثل اليوم، فلقد كان الخبز يصنع في البيوت، فتحمل النساء الجرَّة وتملأها من الترعة، والجرَّة تزن نحو الخمس أو الست كيلو جرامات من المياه. وأما الطبخ والغسل ونحوه فكن يستعملن الطُلُمبَّة، وهي مضخة يدوية تُخرج المياه الجوفية، وكانت النساء ترى أن ماء الترعة أعذب وأصفى من المياه الجوفية، ولقد كان منزل جدي كبيرا، فهو عمدة القرية، وكانت فيه طُلُمْبتان.

ما كانت أمي تلد الأطفال إلا ويموتون، ولما تكرر هذا نصحها بعض أهل القرية أن تذهب إلى السادة الرفاعية، وأولئك هم أتباع طريقة صوفية تعرف بالرفاعية، وظنَّت أمي أنها إن أسمت المولود الجديد رفاعي أو رفاعية فإن هذا ينجيهما من الموت، وهو ما كان فعلا، فلما رُزِقت بأختي الكبرى أسمتها "رفاعية"، ثم لما وُلِدت بعدها أسمتني "رفاعي"، ثم لتختر فيما بعد ما تشاء من الأسماء، وكان لأختي الكبرى اسم آخر هو "عدلية".

عاشت "رفاعية" أو "عدلية" ست سنوات أو سبع، ثم توفيت، وعشت أنا إلى هذا اليوم، وسُمِّيت باسمي هذا "رفاعي"، ثم جاءت بعدي أخت سميت "روحية" إلا أن والدي كان يحب المغنية شادية فأطلق عليها هذا الاسم، فهي في الأوراق الرسمية "روحية" ولكنها في الواقع "شادية"!

في ذلك الوقت كان أبي يعمل تاجر حديد خردة، ويسمى هذا "مقاول حديد خردة"، يجتمع النفر من هؤلاء المقاولين فيشترون الحديد الخردة إما من مخلفات المصانع أو المباني أو ما يجمعه الناس، إذ يمرُّ عليهم صاحب حمار وينادي على من كان لديه حديد يشتريه منه، فكان الناس يبيعونه ما لديهم من مخلفات الحديد كقائم للسرير، فلقد كانت الأسرّة في ذلك الزمن تُصنع من الحديد، أو "الناموسية" التي تظلل سرير العروس، وهي من الحديد أيضا، أو الأواني التي تكون من الحديد أو الألومنيوم، ونحو هذا. وكان الغالب في عملية البيع والشراء المقايضة، فلقد كان وجود النقود محدودا جدا آنذاك، فيشترى الرجل قطعة الحديد مقابل ثلاث بيضات أو كمية من الغلال والحبوب، أو ربما أتى بأشياء جديدة مثل "شبشب" أو نحوه، وكان مصنع سكر أرمنت بدأ بالعمل حديثا تلك الأيام، فكانوا يأخذون مخلفاته أيضا، وكان أبي يعتبر من أعيان البلد لأن هذه الأشياء كانت

ثمينة في ذلك الوقت. ثم في مرحلة لاحقة بلغه أن مركز إدفو التابع لمحافظة أسوان سينشئ مصنعا جديدا، فعزم على الانتقال إلى هناك، لعلمه أن المصانع في بدايتها تخلف كثيرا من كمايات الحديد، وهو ما كان، وظل يعمل هناك في موقع نشاطه الجديد إلى أن عزم على نقل الأسرة معه إلى هناك. وكان والدي أول رجل من قريتنا يغترب عنها، وهو اغتراب داخلي بسيط، ومع ذلك فأهل القرية اعتبروها غربة كبيرة فاجتمعوا وأخذوا في البكاء، وهذا لانعدام وسائل الاتصال في ذلك الوقت.



لم أعرف الراديو إلا في السنة الخامسة الابتدائية، فقد كنا نزور قريتنا كل سنة أو كل ثمانية أشهر إذ نعود إليها من مكان استقرارنا الجديد في مركز إدفو، وفي تلك الزيارة كان جدي قد اشترى واحدا، وكان جهازا ضخما حينئذ، حوالي ٧٠ سم × ٥٠ سم، ولما رأيته يتكلم سألت جدي باستغراب: ما هذا؟ فقال: هذا راديو، وكان بعض الناس يتصورون أن المذيع قابع بداخل الراديو ويستغربون كيف يُحمل معه، لكن أغلب الناس كانوا يسخرون ويتندرون من هؤلاء، يقولون: ألم تسمع عن الزمان الذي سيتكلم فيه الحديد؟! ها هو قد جاء وتكلم الحديد!



تفكيك أدوات السلطـــة (٣)

الثـــروة

د. عمرو عادل

تحدثنا في المقالين السابقين عن حق المراقبة وحق العقاب كأدوات رئيسية في بنية السلطة لفرض سيطرتها واستعبادها للمجتمع؛ ونتحدث في هذا المقال عن الثروة كأحد أهم الأدوات التي تحاول السلطة السيطرة عليها لإخضاع المجتمع وتركيع أي قوة ناشئة تحاول الخلاص من الاستعباد التي تمارسه الدولة الاستبدادية.

" لسنا بصدد الغرق في التعريفات المتعددة للثروة، إلا أنها ببساطة كل ما يملكه المجتمع من موارد وأصول وثروات طبيعية وبشرية، وتقوم الدولة بإدارة كل الثروات المتاحة لتحقيق أقصى عائد ممكن لصالح المالك الأصلي وهم أفراد المجتمع، وتستخدم كل إمكاناتها لتحقيق ذلك. "

ومن الضروري أن نتفق على أمور رئيسية قبل الخوض في مسألة تفكيك سلطة الدولة المستبدة على الثروة، وأرى أن من لا يتفق مع هذه الأمور فلا داعي لإضاعة وقته في باقي المقال .

١ أن الثروة الموجودة في أي قطاع جغرافي ما هي ملك لجميع من في هذا القطاع.

٢ أن القيمة المضافة التي تكتسبها أي سلعة هي نتيجة رأس المال والعمل معا.

٣ أن جميع الأفراد لهم حق في المال العام وأن هناك حداً أدني يجب أن يحصل عليه الجميع، وجميع العاملين. لهم حق في المشاركة في القيمة المضافة.

٤ أن الفقر مشكلة أخلاقية وليست اقتصادية.

الثروة أحـد أهـم عناصر القوة التـي تملكها الدولة، ولهذا تحاول السيطرة على مصادر إنتاجها وتدفقها في المجتمع، وتستخدم القوانين واللوائح والقوة المادية لفرض سيطرتها على كافة مجالات إنتاج الثروة، وتتدخل في كل تفصيل وتسيطر على تدفقات النقد بالبنوك لمعرفة كل شيء قدر ما تستطيع.

قد يرى البعض أن ذلك جيد؛ إذ يمكن حماية الطرف الأضعف "المجتمع" باستخدام الدولة القوية، ربما يكون ذلك صحيحا؛ هذا إذا كان قدر طغيان الدولة حتميا وضعف المجتمع قدريا، وعلى من يفكر هكذا إدراك خطورة التنازل عن القوة لأي طرف وأن القوة المطلقة والسلطة المطلقة ليس لها طريق إلا سحق الطرف الأضعف؛ هذه معادلة وربما تكون الأكثر وضوحا عبر التاريخ، فقد أدت هذه الفرضية إلى تغول الدولة وانهيار المجتمعات وتحولها إلى وسائل إنتاج للثروة ومجال لإنفاذ إرادة السلطة.

على أي حال نتكلم الآن عن واقع يحاصرنا وليس على آمال لا تزال تبدو بعيدة، والمشكلة الحالية أن مصر وغيرها واقعة تحت نظام دولة مركزية مستبدة وقد جمعت بذلك كل مقدمات الظلم والفساد، وبالتالي أصبحت تستعمل كل أدواتها لكي يكون اتجاه الثروة الحقيقية إلى أعلى، وتبقي غالب طبقات المجتمع تتصارع على ما يسد رمقهـا.

دعونا نوضح أكثر في نقاط محددة

١ استخدام القانون والسلطة التشريعية في عمليات احتكار واسعة تتحكم فـي الأسعار وتستنفد ما تبقى من ثروات المجتمع.

٢ السيطرة علـى منافـذ البلاد لتحصيل جبايات، وتمرير الفساد التجاري بعمليات رشاوي لا تخفي على أحد.

٣ زيادة معـدلات الضرائب مـن المنبع؛ لامتصاص دمـاء الفقراء والطبقة الوسطى لحساب أصحاب الثروة

٤ التفريط في الموارد والثروات لحساب قوى إقليمية ودولية؛ للحفاظ على سيطرة الطبقة الحاكمة على السلطة، واستمرار تدفق ثروات مصر للخارج.

٥ سيطرة طبقة من رجال الأعمال والمؤسسات على مفاصل الثروة.

٦ زيادة نسبة الفقر في المجتمع، وارتفاع نسبة من تحت خط الفقر وتراجع الطبقة الوسطى.



ولا يخفى على أحد حالة الانفصال الطبقي الكبير في مصر، والذي اختبأت فيه الطبقة الحاكمة خلف أسوار عالية وحراسات مسلحة؛ حفاظا عليهم من الغوغاء والبائسين.

> وإذا اتفقنا أن الفقر قضية أخلاقية قبل أن تكون اقتصادية؛ فلنعترف أن زيادة حجم الفقر ناتج عن تدفق ما خاطئ للثروة وموجه بفعل أدوات السلطة الأخرى؛ لذلك فإن الفقر في المجتمع الاستبدادي ذي الدولة المركزية ناتج عن سرقة وليس فقط فساد إجرائي قابل للإصلاح.

ولنقف عند نقطتين مركزيتين :

١ لكل فرد الحق في حد أدني للحياة لا يعتمد على قدراته ولكن يعتمد على كونه شريكا في حق الانتفاع بالمال العام، وإذا لم يحدث ذلك فهناك شخص ما في مكان ما يسرقه تحت رعاية السلطة.

٢ كل وسائل صعود رأس المال إلى أعلى برعاية السلطة وباستخدام القوانين أو القوة المادية هي سرقة بالإكراه، وهي ليست سرقة بنصوص القانون ولكن سرقة عندما نفكر تحت مظلة العدالة.

إذاً ينبغي على الشعوب التي تعاني من السرقة بقوة السلاح وبقوة القانون أن تستعيد حقها المسلوب بكل الطرق المتاحة، ودعونا نذكر أن الجوع والعوز ليس قضية فرد أو أزمة فرد، ولكنها جريمة مجتمع وسلطة، لا يمكن أن تمر دون حساب، ومن العدل أن يكون حسابا لحظيا سريعا حاسما.

إذاً ينبغي على الشعوب التي تعاني من السرقة بقوة السلاح وبقوة القانون أن تستعيد حقها المسلوب بكل الطرق المتاحة، ودعونا نذكر أن الجوع والعوز ليس قضية فرد أو أزمة فرد، ولكنها جريمة مجتمع وسلطة، لا يمكن أن تمر دون حساب، ومن العدل أن يكون حسابا لحظيا سريعا حاسما.

١ الحقوق لا تقر بالقوانين ولكن تقر بمعايير العدالة؛ والحق هو ما يجب أن تسعى إلى الحصول عليه بطرق عادلة، وهي ليست بالضرورة "قانونية"، خاصة إذا تحول القانون لأداة في يد السارق!

٢ مفاهيـــم الشـــرف والنبـــل والعـــدالة تستطيـــع الأنظمة - بالسيطرة على الوعي وبصناعة الصور الذهنية المضللة - تغيير معانيها الحقيقية؛ فليس الجوع الإجباري نبلا، ولا ينال استعادة الحقوق جزءا من الشرف، وليست طاعة القانون دائما من العدالة.



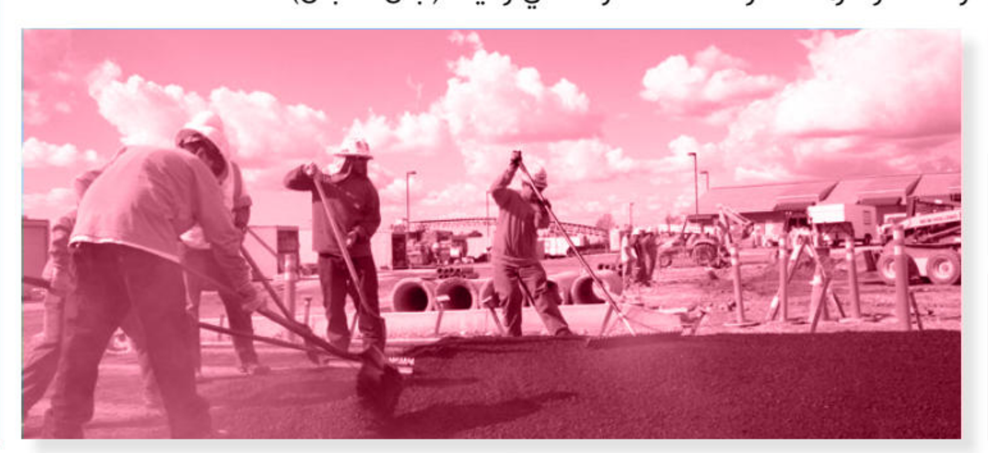
بعــد هاتين النقطتين يمكــن توضيح بعــض المسارات والإجراءات، التي يمكنها المساهمة في تفكيك سيطرة النظام على الثروة.

- **أولا :** تشجيع الاقـتـصـاد المـــوازي غـيـر المـعـلـوم للنظام الـحـاكـم بكل الـطـرق، وهـو يحمي المجتمع مـن الـخـضـوع الـكـامـل لـلـدولـة؛ إذ يستطيع بذلك الـهـروب مـن مـسـارات السرقة المقننة مـن ضـرائـب ورســوم وغيرها.

نقطة إيضاحية: الضرائب حق للمجتمع، وهي ليست منحة من صاحب رأس المال؛ فهو يستخدم الكثير من إمكانات المجتمع لتحقيق ربح ليس له وحده، فالكوادر البشرية التي تعلمت بثروات المجتمع، وكل ما يحصل عليه من مواد خام وموارد هي ملك للمجتمع، ولذلك عند عدم قيام رأس السلطة برد الضرائب للشعب فهي سرقة واضحة، وإذا كانت السلطة لا تقوم بذلك الأمر، فعلى صاحب الحق الأصيل - الشعب - البحث عن الوسائل التي يستعيد بها حقه أو الاحتفاظ به من البداية.

- **ثانيا :** العمال أصحاب الحق المهضوم في توزيع فائض القيمة، لهم الحق في أخذ ما يستطيعون بما يحقق التوزيع العادل للأرباح، وإذا كان القانون يطغى لصاحب رأس المال؛ فليتحمل أصحابه نتائج الظلم البين وليس أصحاب الحق الأصيل من العمال.

- **ثالثا:** لا يجب على أي من أفراد الشعب البقاء جائعا، لا هو ولا عائلته، ومن الواجب عليه الحصول على مصادر طعامه بما يراه مناسبا، وعلى السلطة حل المشكلة ابتداءا؛ ولا تصدر الأزمة للطرف الأضعف، ولنا في رغيف (جان فالجان) عظة.



رابعا: لا شيء من حق النظام ولا "رجال الدولة"؛ فإذا تغولت الدولة واستبدت؛ فلا مانع لها من الشعب ولا يجب أن تسعفها الأسوار العالية ولا الحصون المنيعة من حق الشعب أن يستعيد حقه المسلوب.

خامسا: تقليل التعامل مع البنوك لمن يستطيع إلى أقل قدر، إذ إنها أكبر وسائل النظام لمراقبة الثروة، كما أنها واحدة من أكبر الوسائل لسرقة الشعوب.

سادسا: أي تبرعات أو زكاة مال أو مشروعات خدمية أو تدفق مالي بأي شكل لا تُدفع عبر مؤسسات النظام، أو أي مؤسسات قد يبدو أنها مرتبطة به، والأفضل التعامل المباشر بين مقدم الخدمة والآخر.

سابعا: لا تدفع أي أموال للنظام في أي مجال قدر استطاعتك وبكل الطرق المتاحة، فهي أموال تذهب لمجموعة من اللصوص.

هناك الكثير من الإجراءات والمسارات التي تفكك سيطرة النظام على الثروة، ولا ننسى أن كل ما على أرض البلاد وفي بطنها وهوائها ملكا للشعب؛ وهو صاحب الحق الأصيل ويمارَس عليه أكبر عملية سرقة في تاريخه في هذه الأوقات، لذلك فكل فعل - كل فعل - يستطيع به هذا الشعب استعادة حقه فهو فعل صائب ما دام في إطار مساحة العدالة وليس بالضرورة "القانون".

المهم أن يكون أي مسار أو إجراء لابد أن يهدف إلى نقل الثروة من الطبقة الحاكمة للمجتمع، أو تقليل تدفق الثروة إلى الطبقة الحاكمة والاحتفاظ بها داخل مساحة المجتمع، والثروة بمعناها الواسع وليس النقدي فقط.

وهذا الفعل هو فعل ثوري ويسرع من انهيار النظام الحاكم ويقوي المجتمع، ولن تحدث ثورة شاملة تطيح بكامل النظام إلا من مجتمع قوي يمتلك كل أدوات القوة، وواحدة منها بالتأكيد هي الثروة.



مذكرات درويش (٢)

يسرا جلال



١٩٠٥

تم للملا ما أراد.. وقعت الهدنة بالفعل مع الإيطاليين. وكنا نظن أننا سنلقي السلاح ونعود للكُتاب، ولكـن الصـدامات استمرت بيننا وبين القبائل الموالية لإيطاليا والحبشة.. لم تكن بقوة الصدامات مع الجيـوش الأوروبـيـة، وتمكنـا مـن تشييد حصـون وقلاع جديدة؛ فالملا لا يتوقع لهذه الهدنة أن تطول ويجب أن ننتهز هـذا الهدوء النسبي المؤقت.. ولكني على أية حال حاولت استغلال زمن الهدنة وتزوجت ابنة عمي، ولَم تعارض الفتاة في ترك ديار قبائلنا في بربرة والانتقال للعيش معي في أحد حصون المُلا.

أول يناير ، ١٩١٠

انتظم ولدي (نور) في الكُتاب، اللهم اجعله نورًا وأهده وأهد به، واكتب له النجاة من الفتن.. أرجو من الله أن يرزقه من ينير له طريقه كما رزقني بالملا محمد. أخشى أن يتلقفه علماء السوء فيصرفوه عن جهاد الكفار.. وأخشى ما أخشاه أن تفتح عليهم الدنيا فيتنافسوها فتهلكهم.

أبـريـل ، ١٩١٠

بـيـنـمـا تـعـلـن بـريـطـانـيـا نـيـتـهـا لـلـجـلاء، تـنـتـهـج إيـطـالـيـا سياسة الإنـجـلـيـز فـتـدفـع الـقـبـائـل المـوالـيـة لـهـا وتـسـلـحـهـا لـحـرب الـدراويـش.

وبينما كان الدراويش يحاربون أعداء الله كان سلطان (هيبة) علي بن يوسف وغيره يحاربوننا بدلًا عن الكفرة الأوروبيين، وبينما كنا نفاوض الأوربيين ندًا لند ويسعون هم في الهدنة معنا، كان علي بن يوسف يوقع معاهدات الحماية ويتعهد بعدم استعمال جيشه إلا برضاء الحاكم الإيطالي.. أيظن عليًا نفسه نجا بموالاته للكفرة؟

١٩١٢، سبعة أعوام بعد توقيع صلح الخديعة

رغـم أن الإيطاليين قـد أوكـلـوا مهمة قتالنا للصوماليين إلا أنهم خرقوا الـهـدنـة وقـاتـلـونـا بأنفسهم، وقـام دراويـش الـجـنـوب بـالـرد عليهم في حملة انـتـقـامـيـة.. خسائر الإيطاليين تـتـوالـى في ليبيا و في الـصـومـال.

تليح ، أغسطس ١٩١٣

نما إلـى علمنا أن الإنجليز عازمون على شن هجوم مفاجىء علينا.. لا أعرف لمـاذا كنت أشعر بالقلق هذه المـرة؛ فقد واجهنا الإنجليز كثيرًا، ولكنني كنت أخشى على زوجـتـي وأولادي؛ صـدق رسـول الله: "إن الـولـد مبخلة مجبنة".

كانت خطة الجنرال (كوفل) هي الاستعانة بقوات ضخمة من عدن ومن الهند، بالإضافة للقبائل الصومالية .

سار الجيش الإنجليزي يستره ظلام الليل حتى عسكر في مكان كثيف الأشجار، وبدأت القبائل الصومالية المصاحبة له في إطلاق الرصاص علينا، وبينما هممنا بالرد عليهم أمرنا الملا ألا نفعل وندخر رصاصنا للإنجليز...

كنا صائمين في نهار رمضان وكانت معركة حامية، ست ساعات من الجحيم.. أظهرت المعركة حقدًا ورغبًة من الجنرال في استئصال الدراويش.. ولكنها انتهت بمجزرة ساق إليها الجنرال رجاله، وفقد فيها رأسه، وفر جنوده بين الأشجار الشوكية الكثيفة.. طلبت من المُلا أن أشعل النار في الأحراش لكن أخلاق المجاهد منعته حرق الأسرى.

دخل كوفل المعركة وهو ينوي الانتقام لحكومة صاحبة الجلالة، ثم لم يخرج من المعركة، سحقه الدراويش سحقًا في (تليح). رغم انتصارنا إلا أني أرسلت أبنائي إلى بربرة ليكونوا في كفالة أمي إن أصابني مكروه.



يناير، ١٩٢٠

فتحت الطائرات البريطانية نيران مدافعها على حصوننا، قتل العديد من الرجال ونهبت الخيول والإبل.. لا عهد لنا بالطائرات ولا سلاح عندنا يصد ضرباتها.. تفرقنا هاربين لا نلوي على شيء وأسر منا الكثير.. أصبت إصابة بليغة وحملني رفيقاي على محفة، حاولنا اللحاق بإخواننا دراويش الجنوب.. كان الحاكم الإنجليزي قد وجه إنذارًا للدراويش وصف فيه المُلا أنه فتان يهلك البلاد، وأرفق مع إنذاره ورقة تحمل أسماء الكثير منا يطالب فيها بقتلهم أو تسليمهم مقابل مئات بل آلاف الروبيات، وكان اسمي بينهم.

مارس، ١٩٢٠

أحمد الله أن تمكنت من اصطحاب أوراقي معي، لكنني لم أتمكن من العثور على حبر إلا اليوم. راسلت أمي لأطمئنها فقد فقدنا الكثير من الشهداء في هجوم الإنجليز الأخير.. كانت قد تهدمت الكثير من حصوننا، خاصة تلك التي بنيناها على عجل.

شهران مرا بعد ضربنا بالطائرات، أرسل الجنرال الإنجليزي إلى الملا محمد يطالبه بتسليم نفسه ورجاله من الدراويش ويحدد لنا مهلة 04 يومًا، استشاط الملا غضبًا ورفض طلبه.. نستسلم لهم بعد أن أمضينا عمرنا نقاتلهم! سنتقاتلهم حتى يتركوا بلادنا أو نفنى فيقاتلهم أبناؤنا.

عجيب أمر الإنجليز، يعز عليهم الانسحاب. عشر سنوات مرت على قرارهم بالانسحاب واليوم يريدون لانسحابهم أن يبدو كاستسلام منا.

أرسل الحاكم الإنجليزي مجموعة من المعممين الصوماليين؛ الشيخ إسماعيل والشيخ جرد، وغيرهما، ومعهم رسالة تطالب باستسلام الدراويش مقابل منحهم الأمان ورد الأسرى. إن الأمان كل الأمان في قتالهم طاعة لله.



أبريل ، ١٩٢٠

وصل المعممون إلى قلعة (شنيل) وجردهم الفرسان من سلاحهم، وخرج إليهم المُلا ومعه من الدراويش حوالي مائة ألف بكامل سلاحهم.. ساد المكان صمت حتى أذن المُلا لهم بالجلوس.. جاءوا ليطالبونا بالاستسلام فبدا الأمر وكأنهم من يستسلم.

كان المُلا جالسًا عليه مهابة يستجوب الشيخ إسماعيل، والأخير يجيبه صاغرًا بصوت خفيض وعين زائغة.. سأله مشيرًا بأصبعه في الهواء: كيف يمكن أن يكون مع الرسول والأولياء من جانب، ومع أعدائهم من الكفار في جانب آخر؟ كيف يمكن أن يحتفظ بعمامته ومسبحته ويحمل بندقية الحكومة الإنجليزية في الوقت نفسه؟ وأخبرهم أنهم لولا أنهم رسل لقتلهم جميعًا.

مايو ، ١٩٢٠

بعث المُلا محمد مع الوفد شروطه لوقف القتال إلى الوالي الإنجليزي آرشر. تضمنت شروطه رد جميع ما نهبه الإنجليز من السلاح والحيوانات، وكذلك الأسرى.. كما طالبهم بالجلاء عن القرن الإفريقي وإصلاح ما هدموه من حصون وقلاع.

هرشكح ، مايو ، ١٩٢٠

كل يوم نصحو على خبر وفاة واحد منا، نتساقط كالخراف المريضة، يمرض واحدنا.. ترتفع حرارته.. يتقيأ دمًا.. يهذي ثم يموت. الإنجليز يقتلوننا دون قتال، بعد أن فشلوا في إخضاعنا بالطائرات دسوا جراثيمهم في المياه.



مات اليومَ العلامة الشيخ موسى بن عبدالله حسن، دفنه المُلا بيديه وقال: "دفنّا الْيوم المذاهب الأربعة" .

مُذ لوث الإنجليز المياه ونحن نفقد المئات يوميًا، مات من أسرة المُلا وحده مائتان فرد بين رجال ونساء؛ فالحمدلله الذي قبضهم في الإسلام.. ولَم يستسلموا للكفار .

آخر يونيو ، ١٩٢٠

لم أتمكن من تدوين مذكراتي، كنت مشغولًا برعاية المرضى ودفن الموتى. ولكني عدت لأكتب عن جيش المرتزقة الذين ساقهم الوالي الإنجليزي؛ عشرة آلاف مقاتل تحرسهم الطائرات.. لم يتمكنوا من النيل من الدراويش وهم أصحاء فانقضوا عليهم بعد أن صيرهم الوباء هياكل ترقب الموت.. والأحقر منهم أبناء جلدتنا الذين يتكلمون بألسنتنا، وبـدلًا من أن تمتد أيديهم لنا بالعون، أبوا إلا أن يكونوا عونًا للكفار فقتلونا ونهبوا أموالنا.





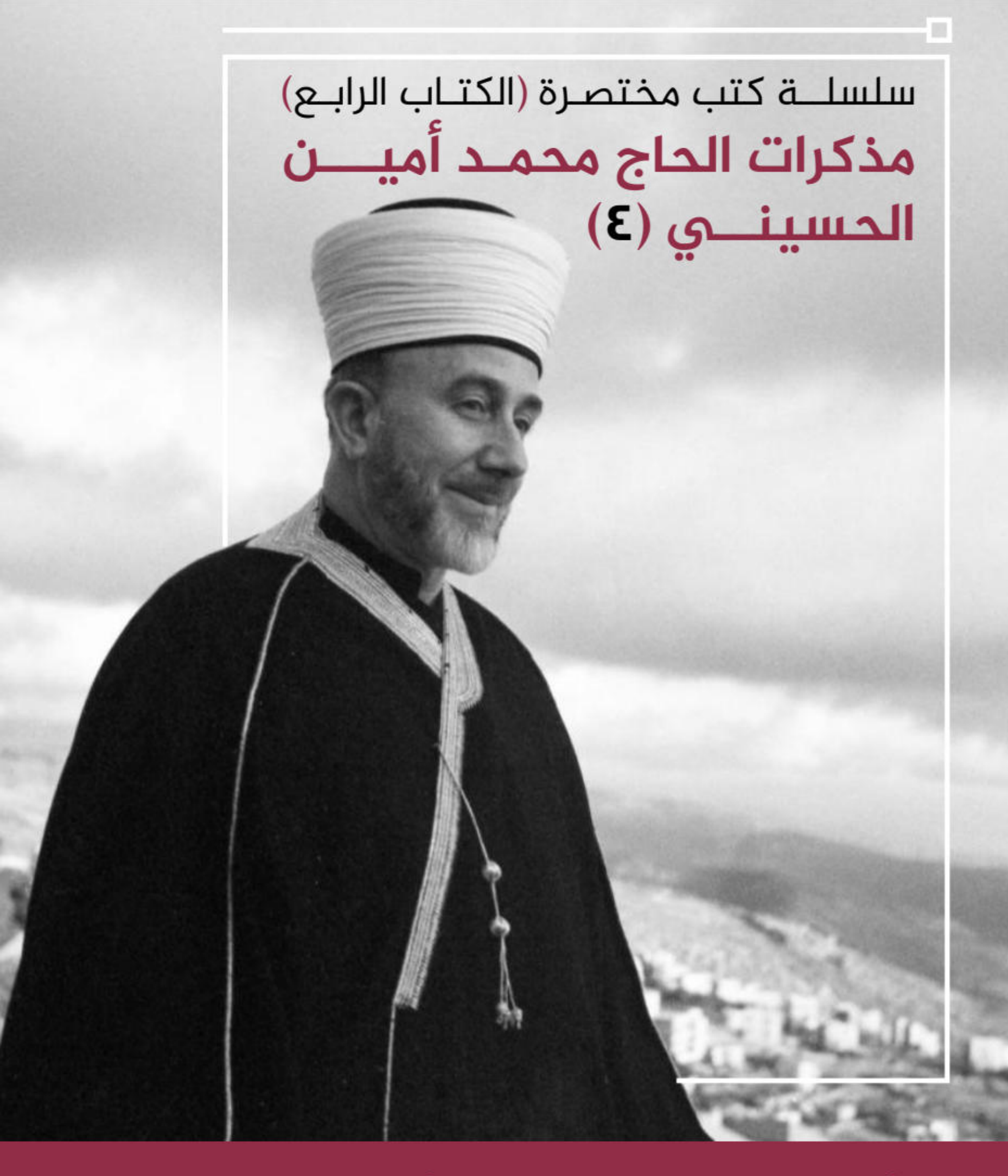
آخر ديسمبر ، ١٩٢٠

بعد المجزرة الأخيرة توجهنا إلى (إيمي) على حدود الحبشة.. هذا آخر ما بقي معي من حبر، لا أستطيع أن أطلب المزيد من المُلا.. تمكن منه المرض وكانت رئتاه تصدران أزيزًا حين يتكلم، زرته في كوخه؛ تحدث معي بكلمات قليلة ثم سعل وبصق دمًا... أدركت حينها أنها النهاية...

صلينا العشاء الآخرة ثم ارتفع صوت ناعي الشيخ فوصلنا في المسجد.. أسرعنا نحو جسده المسجى، نقبّله ونودعه، والدموع تبلل لحانا.

رحـــم الله المُلا محمد بن عبدالله حسن نور، قائد حرب التحرير الصومالية، قتله الإنجليز بالماء الملوث في (هرشكح)، لتنتهي بوفاته دولة الدراويش.

سأحاول اللحاق بقبيلتي في بربرة علّني أعثر على قناني حبر أكمل بها مذكرات الدرو(يش).

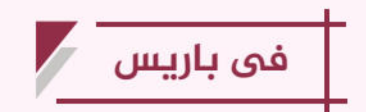


أواخر الحرب العالمية الثانية في ألمانيا ...

لما ضيق الحلفاء على ألمانيا وشرعوا في الزحف على الأراضي الألمانية ١٩٤٥ نقلتنا السلطات الألمانية إلى مدينة بادكشتاين في جنوب النمسا، وبسبب قلة البنزين تحولت السيارات لتعمل بالفحم.

ولما تفاقم الخطر شرعنا في التوجه نحو سويسرا، وفي الطريق علمنا بوفاة هتلر, ولما وصلنا سويسرا رفضوا استقبالنا كلاجئين سياسين، وعرضوا علينا تزويد طائرتنا بالوقود، ومن ثم نتوجه إلى إسبانيا كدولة محايدة, لكن الطيارين أخبروني أن الحلفاء قد علموا بأمرنا وربما يسقطوا الطائرة, توجهنا نحو الحدود إلى مدينة كونستانزة، ووجدنا الجيش الفرنسي محتلاً لتلك المنطقة فتسلمنا رجال الجيش.

كانت حالة ألمانيا في أواخر سني الحرب وعند انتهائها غارات ودمار ومعارك جوية وبرية وبحرية وحرمان, ورغم ذلك كله كان النظام والصبر والطاعة تسود الشعب الألماني.



في باريس

بعد أن تم اعتقالنا مكثنا في المعتقل خمسة أيام أعلمت خلالها ضابط المعتقل برغبتي في مقابلة الجنرال قائد الجيش الفرنسي لمحادثته.
تم نقلنا إلى ضاحية لافارين على بعد ١٢ كيلومتر من باريس, ووضعونا في منزل تحت الحراسة المشددة.

كانت بريطانيا تطالب بتسلمينا إليها بصفتها دولة الانتداب على فلسطين, كما أن قيادة الحلفاء العليا وعلى رأسها الجنرال ايزنهاور تطالب بأن تتسلمنا, لكن الحكومة الفرنسية لم تستجب لهما, كانت ترى أن لها حسابًا معنا من جراء اشتراكنا في مساعدة الثورة السورية ضد فرنسا, ولمساهمتنا -أيضًا- مع الألمان.

> ”واعتقادي أن ما وقع في سوريا من الخلاف الشديد بين الفرنسيين والإنجليز عقب الحرب العالمية الثانية كانت -أيضًا- من أسباب عدم تسليمنا, وأيضًا كانت المظاهرات العربية والإسلامية ومطالبة الكثير من ملوك ورؤساء العرب بأن أقيم في ضيافتهم, كل ذلك جعل الفرنسيين يرفضون تسليمنا.“

بذل اليهود الصهيونيون أقصى جهودهم لمحاكمتي كمجرم حرب في نورمبرغ, ولما كانت مواد القانون الذي أصدره الحلفاء في صفة مجرمي الحرب لا ينطبق عليّ فقد عمد اليهود إلى تلفيق تهم تحقق لهم أمنيتهم, منها أنني حرضت السلطات النازية على إبادة اليهود, قمنا بدحض جميع التهم التي حاولوا إلصاقها بنا, ونفينا أن نكون مجرمي حرب, وبذلك ردت الحكومة الفرنسية طلب محكمة نورمبرغ, وبقينا في فرنسا في منزل تحت المراقبة.

الخروج من فرنسا

تمكن أحد الأصدقاء من توفير جواز سفر لي وتغيير اسمي, ومن ثم غادرت فرنسا سرًّا إلى القاهرة بدون أن يكتشف أحد ذلك.

وكان سبب ذهابي إلى مصر أنها مركز الثقل في العالم العربي وفيها جامعة الدول, كما أن الملك فاروق أبدى اهتمامًا وتشجيعًا لوجودي في القاهرة.



الفصل الثاني : العودة إلى الوطن العربي

ظلت إقامتي في مصر مكتومة عن الجميع بسبب مباحثات الحكومة المصرية في قضية جلاء الجيش البريطاني عن مصر, حتى لا أسبب حرجًا للحكومة المصرية.

وفي ١٩٤٦/٦/١٩ توجهت إلى قصر عابدين والتقيت بالملك فاروق وأعرب عن سروره بلقائي ووجودي في القاهرة, وأبدى الملك رغبته في أن أكون في ضيافته فقابلت تلك العناية شاكرًا, وصدر أمر الملك للحاشية بالانتقال فورًا إلى قصر زهراء أنشاص, وتم نقلي إلى هناك في سرية تامة.

انتشر خبر وجودي في مصر وزيارتي لقصر عابدين, ونشرت الحكومة المصرية التي كان على رأسها إسماعيل باشا صدقي بيانًا عن وصولي إلى مصر وظهوري في قصر عابدين.



كـانت لجـنـة التحـقـيق المشتركة التي عينتها الحكومة البريطانية بالاتفاق مع الولايات المتحدة الأمريكية قد جاء تقريرها بعيدًا عن الحق والنزاهة، وساير رغبة الرئيس الأمريكي ترومان صنيعة الصهيونيين، وأوصت بإدخال مائة ألف من مهاجري اليهود إلى فلسطين، كما أوصت بإبطال القوانين والأنظمة التي تحدد انتقال الأراضي العربية لليهود، وقد قوبلت قرارات اللجنة باستنكار عام ومظاهرات صاخبة وإضرابات شاملة.

وقامـت جـماعات الإخـوان الـمسلمين في مصر وسوريا وعـلماء الأزهر وطلابه بمظاهرات عديدة دعمًا لكفاح الشعب الفلسطيني.

> وعلى أثر ذلك انعقد مؤتمر أنشاص ١٩٤٦ بدعوة من الملك فاروق، وتقرر فيه التمسك باستقلال فلسطين وصيانة عروبتها، وتأليف هيئة عربية فلسطينية عليا تمثل الفلسطينيين وتنطق باسمهم، ثم تبع ذلك عقد جلسة استثنائية لمجلس جامعة الدول العربية في بلودان، وكانت أبرز القرارات التي أسفرت عن الاجتماعات الرد على تقرير لجنة التحقيق الأنجلو أمريكية والتوصية بتأليف هيئة فلسطينية عربية، ثم اتخذت قرارًا بمفاوضة الحكومة البريطانية لحل قضية فلسطين، وفي حال فشل المفاوضات تعرض قضية فلسطين على الأمم المتحدة.



الـواقع أن النـتائج التي أسـفر عنها اجتـماع بـلودان لم تـكن على مسـتوى الآمـال التي عقدت عليه، لقد كانت الحماسة لفلسطين تملأ صدور القوم والرغبة شاملة في الأخذ بالوسائل الناجعة لإنقاذها من الاستعمار والصهيونية ودعم الفلسطينيين بالمال والسلاح، لكن وصول الريغادير كلايتون مدير مخابرات الجيش البريطاني في الشرق الأوسط إلى بلودان مصحوبًا بالمستر برايانس مساعد مدير المخابرات في فلسطين أضعف تلك الحماسة التي كانت تتأجج في الصدور.

انتقلت إلى منزل في رمل الإسكندرية واتخذت فيه مكتبًا للعمل، ولم أشعر أن ثمة قيودًا علي، أو على أحد من إخواني العاملين الذين اتصلنا بهم، وشرعنا في العمل معهم، وجعل إخواننا يفدون علينا من فلسطين والأقطار العربية الأخرى، مثل زيارة الأمير شكيب أرسلان لنا.



معاودة النشاط

انتهت الحرب العالمية الثانية وخرجت بريطانيا وأمريكا منتصرتين، وكان الوجود البريطاني قويًا في البلاد العربية، فلم يكن أحد يجرؤ على معارضة السياسة البريطانية، وبدأ بعض الأصدقاء الأقربين يتخلفوا عن زيارتي، أو يقوموا بها ليلاً في السر، ولم تكن تنقصهم الشجاعة لكن سياسة حكوماتهم في ذلك الحين هي التي قضت عليهم بذلك.



"شرعنا في وضع خطة للعمل تبدأ بدعوة الهيئة العربية العليا لفلسطين للاجتماع، وبدعم موقف الشعب الفلسطيني، ومن ناحيتها شرعت المخابرات البريطانية في التجسس علينا، ونصب شباكها حولنا، وكان معظم جواسيسها من مراسلي الصحف الإنجليزية والأمريكية والفرنسية، وهم يخدمون القضية الصهيونية ويعادون قضية فلسطين والقضايا العربية."

أثناء إقامتي في مصر هذه المرة كان المرحوم مصطفى النحاس باشا خارج الحكم، وأريد أن أنوه هنا على موقف مهم له، وهو دعمه لمسلمي يوغوسلافيا إبان المجازر التي تعرضوا لها حين أرسلت له رسالة أعلمه بذلك، وكان حينها ملك يوغوسلافيا بطرس الثاني لاجئًا في مصر هو وعدد كبير من أتباعه، فذهب إليه النحاس باشا وهدده بإخراج كل الرعايا اليوغوسلافيين من مصر إذا لم يعمل الملك على وقف المذابح، وكان لموقفه ذلك أثر كبير في وقف تلك المجازر، وقدم النحاس تبرعات كبيرة وزعت على منكوبي المسلمين هناك.

اليهود ونشاطهم العسكري والسياسي

رفض اليهود السياسة التي انطوى عليها الكتاب الأبيض البريطاني؛ لأنها لا تحقق لهم مطامعهم، فهم يريدون هجرة يهودية واسعة، وقام زعماء اليهود الذين وطنوا أنفسهم على خدمة قضيتهم الباطلة بمساعي حثيثة ومتواصلة استطاعوا خلالها أن يستنفروا المنظمات والمؤسسات اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية ويجندوا كل العناصر العاملة فيها للتأثير على الأميركيين ودعمهم وتأييدهم في الضغط على بريطانيا لإحباط مؤتمر لندن، واستطاعوا حمل بريطانيا على نقض الكتاب الأبيض.

توصل اليهود لبلوغ غاياتهم وتحقيق مطامعهم بوسائل شتى، فاغتنموا نشوب الحرب العالمية الثانية لتقوية أنفسهم وتعزيز أسلحتهم ومضاعفة قواتهم العسكرية، وتحصين مدنهم ومستعمراتهم.

وجندت بريطانيا خلال الحرب ألوفًا من شبان اليهود فدربتهم عسكريًّا وأشركتهم في بعض العمليات الحربية، وبلغ عددهم ٣٣ ألفًا.

وقبل أن تنـتهي الحـرب كان اليهود قد أتموا تنظيم قواتهم وتسليحها، وأرادوا اغتنام الفرصة لتهويد فلسطين وإقامة دولتهم فيها خشية قيام حركة عربية عامة بعد الحرب.

وشرعت المنظمات الصهيونية في اقتراف جرائم واسعة النطاق ضد السلطات البريطانية والشعب الفلسطيني في آن واحد.

كانت نواة التشكيلات العسكرية اليهودية في فلسطين هي جمعية المحاربين القدماء من اليهود المسرحين من جيش الجنرال اللنبي الذين سمحت لهم الإدارة العسكرية البريطانية بالبقاء في فلسطين والاحتفاظ بأسلحتهم.

شرع اليهود في أعمالهم الإرهابية من مطلع عام ١٩٤٤ وأسقطوا هيبة بريطانيا، وقتلوا العديد من رجالها وكبار موظفيها، وكانت جرائمهم هذه تقابل بتسامح غامض وتغاض لا نظير لهما، ولم يكن مسموحًا لقوات الجيش البريطاني بالتصدي لهؤلاء، على عكس قمع الجيش البريطاني لثورة العرب في فلسطين.



كانت الحكومتان البريطانية والأمريكية تجاملان العرب وتخادعانهم خلال أيام الحرب العالمية الثانية لاستبقائهما في صفوفهما وضمان ولائهم لهما.

كان المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود قد بعث إلى الرئيس روزفلت خطابًا وجه نظره فيه إلى قضية فلسطين وحق العرب فيها وأن دعوى اليهود باطلة.

وجدير بالذكر أنه حين اجتمع الملك عبد العزيز مع رزوفلت في مصر عرض عليه الأخير أن يسمح لاستيطان اليهود في المنطقة الواقعة شمال الحجاز والمشتملة على أراضي خيبر وبني قريظة وبني النضير وتيماء ووادي القري وأبلغه باستعداد اليهود لدفع مبالغ عظيمة من المال لقاء ذلك, وكان طبيعيًّا أن يقابل هذا العرض المستغرب والمستهجن بالرفض والاستنكار.

شهدت الأيام الأخيرة من شهر تشرين الثاني ١٩٤٧ نشاطًا عظيمًا وصراعًا شديدًا في دوائر الأمم المتحدة بين العرب وأنصارهم من الدول التي عارضت التقسيم, وفي النهاية وافقت الجمعية العمومية على تقرير أكثرية أعضاء اللجنة الدولية الذين أوصوا بالتقسيم, وصدر القرار بأكثرية ٣٣ صوتًا ضد ١٣ واستنكف ١١ عن التصويت, وهكذا قيض لمؤامرة تقسيم فلسطين أن تتخذ شكلها القانوني والدولي في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٧.

الموقف من التقسيم

كان لقرار التقسيم صدى عظيم، واكتسحت العالم العربي موجة عارمة من السخط والاستنكار, وأعلن الشعب الفلسطيني الإضراب العام ثلاثة أيام متوالية مصحوبًا بالمظاهرات الصاخبة, وقامت في الأقطار العربية مظاهرات وإضرابات مماثلة، وفتحت الحكومة السورية باب التطوع للشباب, وأصبحت المصادمات تحدث كل يوم تقريبًا في فلسطين بين العرب واليهود.

وفي شهر كانون الأول عقدت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية شهده أكثر رؤساء الدول العربية استنكرت فيه التقسيم، وأعلنت العزم على مقاومته.

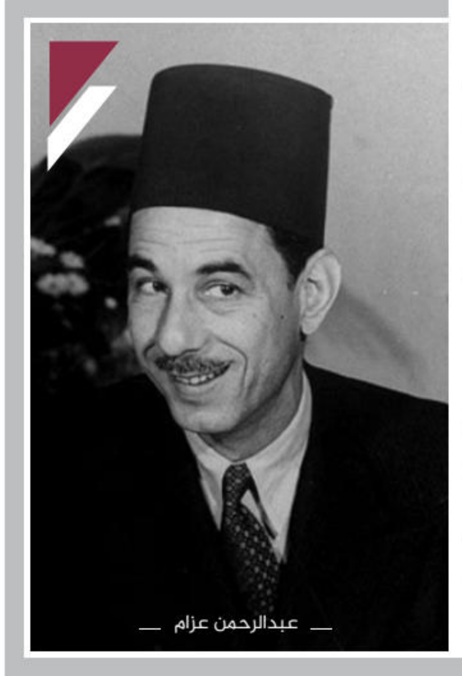
أخذ الفلسطينيون يتسلحون بما يستطيعون شراءه بالأموال من الأقطار المجاورة، وأخذت الهيئة العربية العليا لفلسطين تعنى بهذا الأمر عناية جدية.



الوحدة العربية وجامعة الدول العربية

كانت الوحدة العربية أو الجامعة العربية هي هدف القائمين بحركة النهضة العربية، لكن السياسة الاستعمارية للدول الغربية كانت تعمل متعاونة مع اليهودية العالمية على نقيض ذلك الهدف. فقد عملوا على تجزئة الأقطار العربية وتقسيمها دويلات وإمارات صغيرة ليسهل الاستيلاء عليها واستعمارها واستغلالها اقتصاديًّا وعسكريًّا.

وهناك مخططات استعمارية ويهودية لتقسيم تلك الأقطار العربية (المقسمة) إلى أجزاء صغيرة على أسس طائفية وعرقية أو قبلية، فتصبح في العراق دولة شيعية وأخرى سنية وثالثة كردية ورابعة تركمانية، وينقسم اليمن إلى دولتين زيدية وشافعية، والسودان شمال وجنوب... وهكذا دواليك.


ـــ عبدالرحمن عزام ـــ

وقد شعرت فلسطين قبل غيرها من الأقطار العربية بالحاجة إلى الوحدة وقيام جامعة تجمع العرب، ولذلك طالبوا بالوحدة مع سوريا وأطلقوا على فلسطين اسم سورية الجنوبية، وأعلنوا ذلك أمام لجنة الاستفتاء الأمريكية التي زارت فلسطين عام ١٩١٩.

في ٨ ربيع الآخر، ٢٢ مارس، ١٩٤٥ تم توقيع ميثاق الجامعة العربية في اجتماع عقده ممثلو الدول العربية في القاهرة، واختير السيد عبد الرحمن عزام أمينًا عامًّا للجامعة.

فررت جامعة الدول العربية تأليف قوة مسلحة سميت جيش الإنقاذ قوامها متطوعون من الأقطار العربية، ومن جملتهم عدد من الفلسطينيين, وجعلت مركز الجيش دمشق, وكان عددهم نحو 5 آلاف جندي دخلوا فلسطين على دفعات.

واتخذ الجيش معظم مراكزه في مناطق عربية ما بين نابلس وطولكرم وجنين, حيث لا توجد مستعمرات ولا مدن يهودية, ورغم ذلك هاجمهم اليهود وكادوا يقضون عليهم في مرج ابن عامر لولا مسارعة أهل القرى المجاورة من الفلسطينيين إلى نجدتها وفك الطوق عنها وإنقاذها.

خلال الأشهر الخمسة منذ صدور قرار التقسيم إلى قبيل جلاء الإنجليز استطاع الفلسطينيون أن يلحقوا باليهود خسائر جسيمة في مواقع عديدة، وأن يسيطروا على الموقف رغم ضعف وسائلهم.

حين شرع أهالي المدن الكبرى كالقدس وحيفا ويافا وعكا بالعمل على تحصين مدنهم وتسليح أنفسهم تدخل الإنجليز دون ذلك محاولين إقناع الناس بأن بريطانيا لن تسمح لليهود باحتلال المدن الكبيرة، ولا سيما المدن والقرى العربية التي خصصت للعرب بموجب قرار التقسيم.

لما نشب القتال بين العرب واليهود أواخر ١٩٤٧ إثر صدور قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين كان موقف حكومة الانتداب البريطاني متحيزًا إلى اليهود، المتآمر معهم طوال عهد انتدابه.

وقد حدثت معظم المذابح التي اقترفها اليهود في القرى العربية الضعيفة تحت سمع وبصر القوات البريطانية كمذابح دير ياسين وناصر الدين وحواسة وعيلوط وغيرها.

وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا

سورة الفرقان الآية (٥٢)



الخطوة الأولى المنسية

د. عطية عدلان

صلاح الدين هــو الحل

د. علي العمري

كلمة حق | العدد التاسع , أبريل ٢٠١٨
www.klmtuhaq.blog



الخطـــوة الأولـــــى المنسية

د. عطية عدلان

الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد ..

لا يكـون السـعيُ سيراً نحو الـهدف إذا غـابت الخطوة الأولى، التي بدونها لا يُعْرف الطريق ولا يُهتدَى إلى الغاية؛ ومن ثمَّ فإنني على يقين من أنَّ كل ما نبذله من جهد وجميع ما ننفقه من وقت - على ضآلته وضعفه وتهافته - يتبدد في الفضاء سدى، ويذهب في الأنحاء على غير هدى؛ وما ذاك لضآلةٍ في حجمنا ولا لضعفٍ في إمكانياتنا ولا لتهافتٍ في مبادئنا وأفكارنا، وإنَّما لسبب واحد هو أننا جميعاً أُرِيدَ لنا ألا نخطو هذه الخطوة، فاستسلمنا للإرادة الملعونة تلك، وأسلمنا لها القياد.

- كيف يقع المصاب على هذا النحو المزلزل ثم لا يستدعي منًّا مراجعة لأفكارنا ومناهجنا وأفعالنا ومواقفنا ؟!

- سواء ما كان منها في السياسة عندما كانت ناصيتها بأَكُفِّنا، وما كان منها في الثورة عندما كانت ظهراً ذلولاً تحت (أردافنا!)، أم إنَّ المراجعات خُلقت - فقط - لتكون آلية (شرعية!) لنسف الثوابت العقدية والشرعية في سياق التراجع والانهزام ؟!

- لماذا لم يحدث إلى الآن عملية نقد ذاتي فعال وبناء وممنهج ؟!

- من هذا الذي يأخذ بنواصينا إلى شعاب ضاربة في التيه؛ لئلا نقف هذه الوقفة ؟!

- وماذا يريد لنا ؟! ومن المستفيد من هذا الصرف المتعمد واللي المقصود ؟!

هذه هي الخطوة الأولى،

خطوة المراجعة والتقويم، وهي خطوة طبيعية وشرعية؛

إن حدثت انقلبت المحنة منحة واستحالت النقمة نعمة؛ لذلك تشعر - وأنت تقرأ الآيات التي عَقَّبت على أحداث أُحُد في سورة آل عمران - تشعر باستقامة المسار، بل وتشعر - إن كنت متحلياً بالعمق متخلياً عن السطحية - بأنَّ المسار طبيعيُّ ليس فيه اعوجاج؛ وبأنَّ أُحُدَ لا تختلف عن سابقها أو لاحقها في كونها محطة كسائر المحطات في طريق الصعود.

> ولقد قيل يومها لقوم هم خير صحابة لخير نبي: "منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة" "يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية" "إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم" "قلتم أنّى هذا، قل هو من عند أنفسكم" "وطائفة قد أهمتهم أنفسهم".



وإنَّ الأخطاء التي وقعت من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستدعت كل هذه الوكزات المؤلمة، لو تم مقارنتها بما وقعنا فيه من خطايا لبدت كحبات من رمال أمام تلال وجبال؛ فلماذا لا نقف هذه الوقفة مع أنفسنا،

ولماذا نهرب من المواجهة والمصارحة والشفافية ؟

إنَّ التجافي عن المكاشفة الجماعية والمصارحة الشورية يوقع في معضلات أقلها ضرراً أن يحل محل المكاشفة والمصارحة فضح وتشويه وتبادل للتهم وتقاذف بالعبارات القاتلة، وأخطرها تغييب الحقائق وتضليل الجيل وإطالة أمد الغفوة التي يحياها الناس، وليست هذه المفاسد الجمة مقابلة بمصالح إلا تلك الأوهام التي تتعلق بما يسمى بمصلحة الجماعة أو الحزب، وما هي إلا مصالح شخصية تختبئ خلف أستار ناعمة أكثر تدليسا من جلد الثعبان.

نحن أيها الناس قوم منحنا الله تعالى فرصاً لم تمنح لأحد من العالمين، وأتاحها لنا بما لم تتح لأحد من الأولين أو الآخرين؛ فأهدرناها وبددناها وضيعناها؛ فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر مثل هذا الصنيع العجيب !!

فكيف لا نقف مع أنفسنا ؟! وكيف لا نراجع سيرتنا ؟! وكيف لا نقدم توبتنا ؟!

لقد منحنا الله ناصية ثــورة شعبية جــاءت على حين غــرة مــن القبضة الإجــرامــيــة وعلى عــيــن غــفــلــة مــنــهــا؛ حــتــى رأيــنــا بـــأمّ أعــيــنــنــا صــروح الــبــاطــل تــنــهــار وتــتــحــطــم، فــمــاذا كــان موقفنا منها وســلــوكــنــا معها ؟!

ولقد منحنا الله شرعية متمثلة في برلمان ثم في رئاسة عامة؛ فماذا صنعنا بها ؟!

لقد كانت البشرية على موعد بعد الربيع العربيّ بتغيير كبير وخطير ينقلها نقلة كبيرة في آفاق التقد الإنسانيّ، وقبل ذلك كان العالم العربيّ والإسلاميّ كله على موعد عقب الثورات بتحول حضاريّ هائل يعيد رسم خريطة الكرة الأرضية على نحو يقلب (عاليها واطيها) وكان المستضعفون من المسلمين في الأرض كلها على موعد بأوسع أبواب الخلاص؛

فما الذي جرى لتنقلب الأوضاع وينتكس المسار ؟!

كل هذه التــساؤلات يجــب أن تــكــون الإجــابة عــليها واضــحة وصحــيحة وصــادقة وصريحة؛ لأنَّه لا يمكن لعقل أن يمرر هذه التبريرات التي تشبه (المصاصات) التي تعطى لتسكين الأطفال إذا هاج بهم البكاء، إنَّ هناك خللاً كبيراً يصل إلى مدى بعيد، يطال المناهج التي تربى عليها الجيل، ويضع القيادات والجماعات والأحزاب في أقفاص الاتهام؛ ويجعلنا بحاجة إلى تصحيح جذريّ، وعودة سريعة إلى كتاب الله، وتوبة وأوبة، واعتصام بالجماعة والوحدة، ووضع للرؤية والمشروع والخطط بتجرد للحق غير مقيد بأي اعتبار، وكل هذا لن يكون قبل الخطوة الاولى المتمثلة في المراجعة.

فهلا تعجلناها قبل أن يفقد الناس ما تبقى لديهم من ولاء للقضية ؟



صلاح الدين هو الحل!

د. علي العمري



قبل ثلاثين عاماً قدَّم العلامة الشيخ (أبو الحسن الندوي) -رحمه الله- محاضرة عن القدس برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وكان مما قال فيها: "إن الحل لقضية الأقصى هو عودة صلاح الدين".

وقطعاً يريد الشيخ الندوي فكر صلاح الدين، ومنهج صلاح الدين، وخُطَا صلاح الدين في تحرير القدس والأقصى.

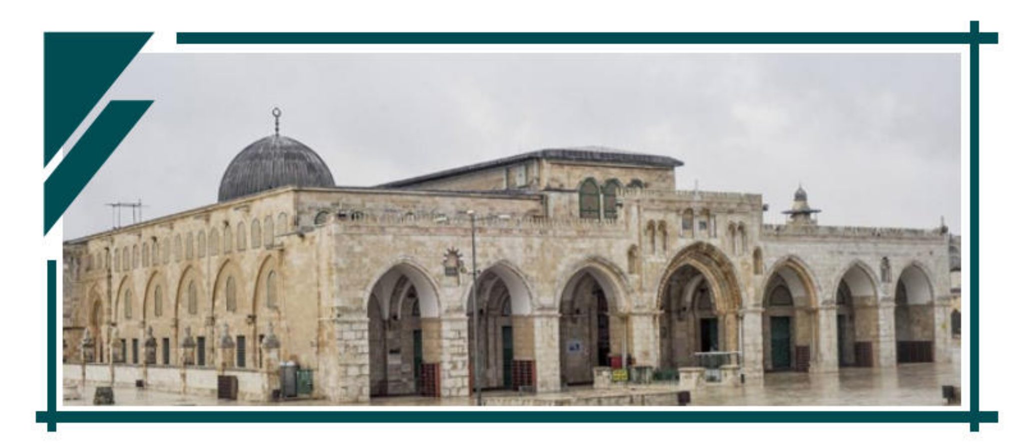
وحول هذا المفهوم قال المؤرخ والأديب (خير الدين الزركلي) يخاطب الأمة:

هَاتِيْ صلاحَ الدينِ ثانيةً فينا وجَدِّدِي حِطِّينَ أو شِبْهَ حِطِّينَا

إن الندوي والزركلي وسواهم ليسوا ممن يتغنَّى بالتاريخ، أو يُطالبُ بتعجيل خروج المهدي كما يُقال. لكنهم يفهمون أن من يُطالب بعودة عمر، هم من وجدوا صلاح الدين!، وهو المعنى الذي لخصه (د. أحمد خيري العُمري) في كتابه الرائع (استرداد عمر).

> "إن الجميع يعرف أنه لن يعود عمر بشخصه وفضائله وتاريخه ومجده، ونزول القرآن موافقاً لعدد من آرائه واجتهاداته، لكن الجميع يعرف أنهم عندما يطالبون بعودة عمر فينا، بفكره، ومنهجه، وهَمّه، وهِمته، ورسالته، وجميل صفاته، فإنهم يراهنون على تلامذة خرجوا بعد حين على خطاه، أمثال نور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي، وعز الدين القسام، وأحمد ياسين، ممن رأى فيهم الناس المضيَّ على السَّنَنِ نفسه في العلم والعمل."

وفي فترة الحملة الصليبية السابعة على الشام، خرج (لويس التاسع) مخاطباً النصارى في الكنيسة بباريس مطالباً الأسقف ورجال المال أن يدفعوا ضريبة للحرب على المسلمين، ثم ناشدهم الوقوف في الصفوف الأولى حتى تدور المعركة وتحقق غايتها.



وفي المقابل وفي التوقيت نفسه خرج الإمام (الصالحي) قاضي (جَبَلة)، وجمع العلماء والوجهاء والتجار، وكان قبلها قد شارك مع عدد من الجند في مواجهة عسكرية على أطراف الشام، وبعد أن جمعهم في المسجد، قال لهم من شعر الأبيوردي:

مَزَجْنَا دِمَاءً بالدُّمُوعِ السَّواجِمِ ... فَلَمْ يَبْقَ مِنَّا عَرْضَةٌ لِلَمراجِمِ
وَشَرُّ سِلاحِ المَرْءِ دَمْعٌ يُفيضُهُ ... إذَا الحَرْبُ شُبَّت نارُها بِالصَّوارِمِ

◆ إن الإمام (الصالحي) يُشرِّح في هذين البيتين الواقع، ويصف العلاج الناجع. لقد أدرك أن أكبر خطر أمام عملية التحرير والمقاومة والحريات والدفاع عن كرامة الشعوب واستقلال الأرض، ألا يبرز القادة والقدوات في ميدان العمل، ولذلك مزج مع إخوانه القادة دماءهم بدموعهم ونزلوا لعرصات القتال، وحين رآهم الناس لم يبق أحد ينال منهم، وينشغل بشتمهم، بل هم وأبناؤهم والأقربون منهم نالهم الأذى، واكتشف الناس أنهم كانوا من ضمن الجنود البررة الذين نافحوا عن الحرية والكرامة، فزاد هذا الواقع من رصيد حبهم، والثقة بهم، والولاء لقضيتهم.

◆ ثم إن الإمام (الصالحي) توجه في خطابه للناس بأن شر ما يقدِّمه الإنسان القليل، وبيده الكثير!، أو أن يُقدم ما يُقدِّمه كل الناس وهو يستطيع تقديم الأولى والأهم والأعز، إذ ماذا يفيد إذا الحرب شبت نارها بالصوارم، وفيها لمعات السيوف، وهناك من يفخر بتقديم الإغاثة والمعونات الإنسانية، وبيده تقديم السلاح والمـُهج!! وفي ذات السياق يقول المتنبي:

عَـجِـبْـتُ لمـنْ لَــهُ قَــدٌّ وَحَــدّ ... وَيَنْبُو نَـبْـوَةَ القَضِمِ الكَهَامِ
وَمَنْ يَجِدُ الطّرِيقَ إلى المَعَالي ... فَـلا يَــذَرُ المَـطـيَّ بِـلا سَـنَـامِ
وَلم أرَ في عُيُوبِ النّاسِ شَيْئاً ... كَنَقصِ القادِرِينَ على التّمَامِ

فمن أراد أن يكون صانعاً للمجد، محركاً للحياة، عليه أن ينزل للساحة، ويدخل في العمق؛ لأن التأثير كما يقول (سيبويه): له عمقٌ ودُخول.

"وهذا وصف دقيق واصطلاح صغير لمعنى كبير، فشأن محرك الحياة أن (يدخل) ليملك محاور التشغيل وعُقد السيطرة، وليس هو المتفرج أو المراقب له من خارج أو المتسمِّر على كرسي يشاهد خبرها من خلال روايات الإعلام لأخبار (الداخلين)، بل يكفيه أن يعلم أن (عبدالرحمن) قد دَخَل المدار الإبداعي، وجَسَر، وكان صقراً، لا حَمَامة، فَمَلَكَ الأندلس وبقيت دهراً في يد أبنائه"، كما يقول الأستاذ: محمد أحمد الراشد.

وبتحليل هذا العمق والدخول في نموذج الساحة الفلسطينية رأينا الآثار العجيبة التي تبنَّى تتبعها المفكر (د. عبدالوهاب المسيري) -رحمه الله- في كتابه المحرَّر: "من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية - أثر الانتفاضة على الكيان الصهيوني"، ومن ضمن وقفات (د. المسيري) في الكتاب:

١. وصف أحد الكتاب الموقف من المقاومة الفلسطينية بقوله في عبارة دالة على فقدان الإحساس بالأمن في إسرائيل: صغيرة هي المسافة بين الخوف والذعر، والجمهور الإسرائيلي يعيش بين هذا وذاك (معاريف: ١١/٢/٢٠٠٢م).
٢. من النكت الشائعة الآن في إسرائيل، ما يقوله مستوطن لصديقه: سأحضر إلى منزلك بالأوتوبيس، وأمنيتي أن أنجح في ذلك!. (الجيروساليم بوست: ١/١/٢٠٠٢م).
٣. ظهر في إسرائيل ما يسمَّى (حضارة البقاء في المنزل)، وهي أن يفضل الناس البقاء في المنزل، ولا يذهبوا إلى المطاعم إلا نادراً، ولذلك فمعظم المطاعم فتحت خدمة (تيك أواي).



وحتى حينما يذهبون إلى مطعم لا يجلسون في الموائد التي توجد في وسط المطعم، بل يفضلون الجلوس وراء العمود (مارتن آسر أون لاين: ٢٠٠٢/٣/٢٦م b.b.c).

٤ بيَّنت (يديعوت أحرونوت: ٢٠٠٢/٢/١٤م) أن شركات الأدوية أفادت بأن هناك ارتفاعاً بنسبة (٥٠%) في استهلاك المهدئات والمسكِّنات.

٥ نشرت كل من (هآرتس وبنئيم: عدد ١٧ صيف ٢٠٠١ م) عن ظاهرة يسميها علماء النفس ظاهرة (العجز المكتسب). وهو سلوك سلبي ينشأ من إدراك أنه لا وسيلة لتجنب آثار مؤلمة، ومن عدم اليقين بخصوص أي شيء. وفي التقارير المنشورة في القنوات والصحف الإسرائيلية أخبار مضحكة أكثر!.

وبعد؛ فإن السَّير على (خُطَا صلاح الدين) ليس عنواناً عبثياً، ولا طرحاً تقليدياً، بل هو في حقيقته تأصيل لفكرة منطق المقاومة، واستمرار المقاومة، وثمرة المقاومة. وما فعلته (حماس) وفصائل الجهاد الإسلامي المباركة في المعركة الأخيرة أنها أبرزت القيادات والجنود الذين ساروا على خطا صلاح الدين، فأعادوا الثقة للأمة الإسلامية، كما كشفوا عن العديد من الأزمات التي مُني العدو الإسرائيلي بها. ولو كان (د. المسيري) حيًّا، لأضاف في طبعة جديدة من كتابه المزيد من الغم النفسي، وارتفاع معدلات الخوف، وأزمة الاقتصاد، وهروب المستوطنين الصهاينة!.

إن المشروع الإسرائيلي قائم كما يقول أحد زعماء الصهاينة على نظرية: "إن ما لا يتحقق بالقوة يتحقق بمزيد من القوة". أما في المشروع الإسلامي فإن منطلق العزة والمنعة والحماية والأمن والأمان من المفهوم القرآني: (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ).

وقبل قوة السلاح والتمكُّن والتطور ما استطعنا - وقد فعلتها حماس - تكون قوة الإيمان التي تمضي بأتباعها في كل نفق، وعلى كل جبل، كالعاصفة تدمر كل شيء بأمر ربها، تدمر الاحتلال وأوتاده وأعوانه، وتطهر الوادي المقدَّس بشبابه وصغاره من أرجاس القراصنة الصهاينة، ومن سار على دربهم من الفراعنة.



ومن كان على خطا صلاح الدين يوقن أن من يَطلبُ الموتَ توهب له الحياة الخالدة، والشهادة الكاملة.

والطريق معبَّدُ للأمة لـتـتحرك، فالـنور قد سطع، والبرهان الفلسطيني قد ظهر، وخطا التاريخ قد كُتبت، والعاقبة للعاملين المخلصين.

• نعيد نشر هذا المقال للدكتور علي العمري فك الله أسره، وهو منشور بموقعه ٢٠-٧-٢٠١٧.

التعليم المنزلي والمطاريد

معتز زاهر



لا يخفى على أحد تزايد نسبة المهاجرين من البلاد العربية بعد الإحباط الذي ساد بعد فشل (؟) ثورات الربيع العربي، وقد ولوا وجوههم شطر المشرق والمغرب، مستقبلين بصدورهم الثقافات الجديدة والعادات والتقاليد الغريبة عليهم، وإذا بهم يواجهون معضلات جديدة لم تكن في حسبانهم حين قـرروا الـهـروب من أتون الانقلابات والثورات المضادة، فقد كانوا يريدون فقط أن ينجوا ويحيوا بحرية!

وقد تجلت هذه المشكلة من وجهين:

الوجه الأول

بالنسبة لشباب المطاريد كما نطلق عليهم في هذا المقال؛ فكثير منهم لم يحقق ما كان يصبو إليه من درجات علمية، أو حرف مهنية، أو دورات تعليمية، وهو مطالب في غربته أن يعمل ويكدّ؛ ليساعد أسرته، خاصة وأن في بلاد الغربة العديد من الآباء لا يجدون عملاً أصلاً، أو يجدون وظيفة لكن لا تسد القوت أو تكفي بالكاد؛ فكيف يجد الشاب وقتاً ليذهب إلى الجامعة إذا كان يعمل؟ أضف إلى هذا أن تكاليف الدراسة الجامعية عالية جداً في البلاد الأوربية مثلاً.

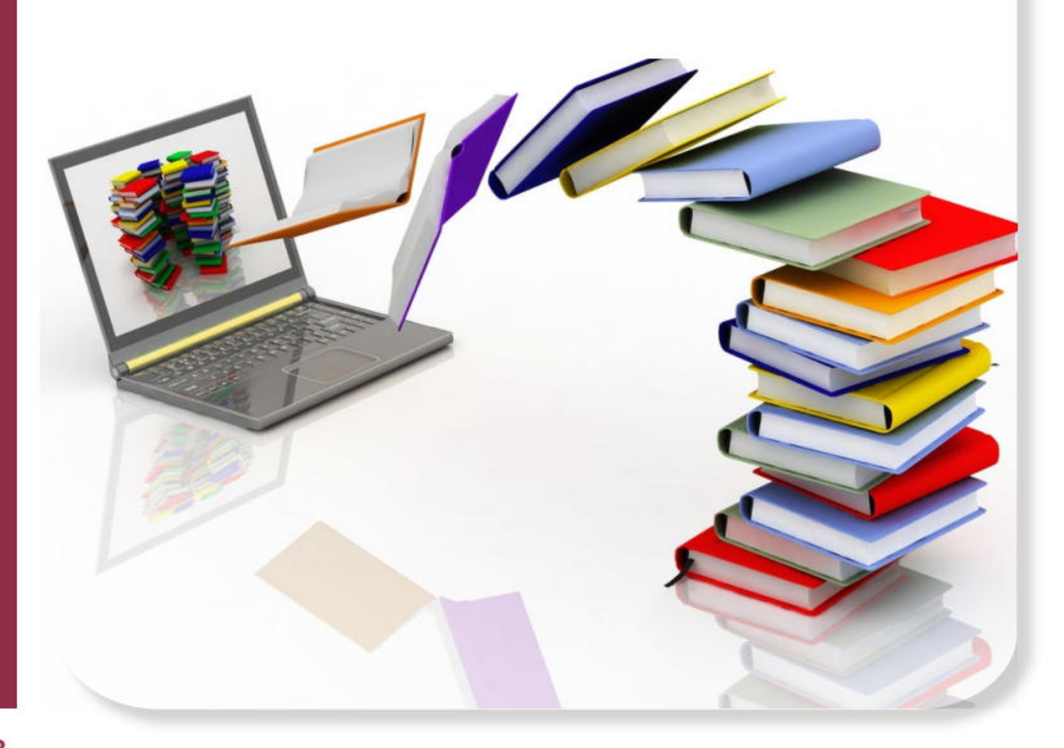
إن نشأتنا على حصر العملية التعليمية في شكل "المدرسة" أو "الجامعة".. جعلت دائرة اختياراتنا ضيقة للغاية؛ فيقول الشاب لن أتعلم أو لن أكمل تعلمي فأنا لا أستطيع التوفيق بين الدراسة والوظيفة، وبالطبع لن أكون عبئاً إضافياً على أبي وأمي فتكفيهما الغربة!



إن هذه النظرة الاختزالية لشكل التعلُم قد تجاوزها الواقع؛ فالآن توجد منصات تعليمية غير ربحية، وهي كثيرة على الإنترنت، مصادر مفتوحة للدراسة، وبعضها بمقابل مالي لكن قطعا ليس في حجم الجامعات، والميزة أنك تدرس في الوقت الذي تحبه، في أوقات راحتك أو في طريقك إلى العمل، أو ساعة قبل النوم أو في إجازة نهاية الأسبوع، بالإضافة إلى أن اليوم أسواقاً كثيرة للعمل لا تحتاج المدرسة ولا الجامعة أساساً! فمجال مثل تكنولوجيا المعلومات والإعلام الاجتماعي والإنترنت عموماً بما فيهم من كم ضخم من فرص العمل والتميز والربح ما هي إلا دليل من عشرات الأدلة على ذلك.

فعليك أيها الشاب أن تسأل نفسك

أولاً: "ماذا أريد أن أعمل بعد سنة أو سنتين"؟ مثلا، ثم بعد تحديدك للجواب اشرع الآن -ليس غداً- في تأهيل نفسك وإعدادها وتدريبها، ونأخذ مثالاً على ذلك وظيفة المترجم؛ ففي عام أو عامين على الأكثر تستطيع إتقان أي لغة إذا وضعت هذا كهدف لك، وحينها تستطيع أن تعمل كمترجم كبداية ومع الوقت ستصير مترجماً محترفاً فلا أحد يبدأ بصورة احترافية كاملة؛ فأنت تعلم العربية وتريد تعلم التركية أو الإنجليزية أو الألمانية أو غيرهم، توجد مئات الدروس المجانية على الإنترنت تستطيع العكوف عليها والمذاكرة والحفظ والممارسة، ولو تسجل إذا تستطيع في دورات بمقابل وبما يناسب وقتك سيكون جيداً أيضاً، وبعد عامين بالكثير حتماً ستجد من لن يسألك في أي كلية تخرجت! ذلك السؤال العقيم الذي أكل عليه الزمان وشرب لن يكون عائقاً أمامك ما دمت لغتك (التي عليك أن تطورها) واللغة الأخرى.



فالمقصود أن التعليم المنزلي Homeschooling أو التعليم المرن، أو التعليم الحر، سمه كما تشاء، صار مشهورا ويمارسه الملايين حول العالم؛ فالموضوع متوقف عندك يا صديقي!

والوجه الثاني لهذه الأزمة:

تتعلق بأبناء المطاريد، الذين فروا مع آبائهم وهم في سن الطفولة، وعليهم أن يستكملوا سبيلهم في التعليم؛ فالمتاح لآبائهم هو أن يرسلوهم إلى المدرسة، خاصة أنها مجانية في البلاد الأوربية مثلاً، وحينها سيواجه الأطفال مشكلة اختلاف الدين والعادات والتقاليد البشعة! وما فيها من تشكيك في الدين وجو عام من الهجوم على الإسلام ونظرات الاستهجان والعنصرية إلى معتنقيه، والذين يقولون إن الأوربيين متحضرون ولا ينظرون بعنصرية إلى المسلمين ويعتقدون أنهم متساوون معهم ولهم حق حرية التدين بكل حرية.. هم حقيقةً أشخاص واهمون، أو يريدون لأنفسهم أن يعتقدوا ذلك حتى لا يفيقوا من حلم التمدين الأوروبي على واقع التعصب الشديد الكامن في نفوس الكثيرين "وليس الجميع"!



لا نقول في هذا المقال بالانعزال عن المجتمعات، بالعكس فالله قد جعلنا شعوباً وقبائل لنتعارف، وهذا التعارف من أكبر أبواب نشر الإسلام في العالم كله، وما نشاهده من تزايد اعتناق الإسلام في أوروبـا وأمريكا واستراليا وغيرهم من أهم أسبابه العلاقات الإنسانية بين المسلمين والشعوب الأخـرى، حتى صارت معدلات ارتفاع تعداد المسلمين تشكل كابوساً مرعباً لـذوي البشرة البيضاء.

وإنما نقول بأنه لابد من التحكم في هذه العلاقات وفي شكل البيئة المحيطة بأبنائنا، وبالخصوص عندما نتكلم عن أطفال هم كالعجين الذي يتشكل بكل سهولة، وأن تكون تحت ملاحظة الأبوين، وينبغي أن تضبط هذه المشاركات المجتمعية، وهو الأمر غير الموجود في طبيعة فكرة "المدرسة"، فقد حدثني مثلاً بعض الطلاب الأوربيين أن المدرسة في بلاده بها مادة (الأديان)، ويقوم فيها المدرس بتدريس نبذة مختصرة عن كافة الأديان الكبيرة المشهورة، السماوية وغير السماوية، ويُعلّم الدين الإسلامي للطلاب من وجهة نظر غربية استشراقية بحتة، فيعرض ما يقوله الإسلام ثم ما يقوله منتقدوه، من باب عرض الرأي والرأي الآخر! مِن نقد للنبي صلى الله عليه وسلم وتشكيك في أنه تلقى الوحي وأنه كان يسعى للسلطة القبلية والسياسية... إلخ.

ويحدثني أيضاً أنهم فـــي بعض حصص الألعاب فـــي حصة تعليم السباحة يجعلون الأطـفـال يتحممون سوياً في مكان واحـــد ذكـوراً وإنـاثـاً، ويفرضون عليهم ارتداء ملابس السباحة الكاشفة للعورات، ويعلمونهم أن مفهوم الحب والـزواج يمكن بين مثليي الجنس وأن عليهم أن يحترموا رغبة كل شخص في أن يكون ما يريد، وبعض آبـاء الأطفال المسلمين ينبه طفله ألا يعترض ولا يقول إن ذلك حـرام حتى لا يسبب لأبيه المشكلات ويقال عنه إنه إرهابي!





الأمثلة كثيرة على عدم مناسبة المدرسة لأطفالنا المسلمين، فالطفل يتعود ويتشكل ويتطبع في كثير من الأحيان على ما كان عليه أسلوب حياته في المدرسة؛ فالوقت الذي يقضيه فيها أكثر مما يقضيه مع أبيه وأمه وإخوته. وهنا يأتي دور التعليم المرن، فيقوم الوالد بكتابة برنامج لطفله ما بين حضور لدروس القرآن واللغة العربية سواء مع أحد والديه أو في مركز إسلامي، أو على يد مدرس مسلم مع مجموعة مع أطفال المسلمين، وما بين دراسة للغة البلد التي هو فيها في أحد مراكز تعلم اللغة التي توفرها الحكومة بالمجان أو بأجر رمزي، وهكذا في بقية المواد، من حساب وعلوم ودراسات... إلخ.

يقوم الأبــوان بالتخطيط لطفلهم وكتابة جــدول له بحيث يــدرس المعارف المختلفة على مدار الأسبوع، وتكون هناك مساحة لممارسة الرياضة والاحتراف في رياضة ما كالألعاب القتالية أو ألعاب القوى مثلا، وأن يبحثوا له عن دورات في تعليم إحدى الحرف المهنية.. إلى آخر هذه المعارف والمهارات التي تُنشئ طفلاً ذا عقيدة قوية بدينه، وذا معرفة واسعة بالمعارف المهمة، وصاحب تفوق رياضي وقوة بدنية. وهذه الأشياء موجودة بالتفصيل في مقالات التعليم المنزلي وكتبه وأبحاثه المنتشرة على الإنترنت، إنما فقط هنا نشير إلى الأمــر بإيجاز.



الآن توجد أقسام للقبول في أعرق الجامعات العالمية للمتعلمين منزلياً، وهو ما يعني أن التعليم المنزلي أو المرن أصبح واقعاً مفروضاً، وهو في حالة المطاريد أفرض من غيره! لكن لابد من التأكيد على أن التعليم المرن أو المنزلي ليس شيئاً اعتباطياً بل له محددات وضوابط ونصائح وتوجيهات ينبغي أن تراعَى حتى ينتج ثمرته المرجوة، فهو ليس أن تحبس طفلك في المنزل مع عشرات الكتب فيصاب بمختلَف العقد النفسية!



المشرف العام
محمد إلهامي

مدير التحرير
معتـز زاهـر